

كف الباولونيا

رواية

خلود عز الدين

الكتاب: كهف الباولونيا

المؤلف: خلود عز الدين

تصميم الغلاف: مروة صلاح

المراجعة اللغوية: عيد إبراهيم عبد الله

الطبعة الأولى: فبراير 2019

رقم الإيداع: 2018 / 00000

التقييم الدولي: 5 - 216 - 779 - 977 - 978

الإخراج الفني: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبد الله
dreidibrahim@gmail.com



جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 10 ش هدى شعراوي، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0223909119 - موبايل: 01001631173

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

ibda3bookstore@gmail.com

كف الباولونيا

رواية

خلود عز الدين



إهداء

إلى أولئك الذين بحثوا عن الطريق حتى حين غابت الشمس..
وإلى أولئك الذين أشرقوا في الدنيا فعمَّ بهم الدفء..
بكم صار للحياة ألف معنى..

إلى رفيق دربي وأنيس روحي.. دمت لي

«هناك من حيث جئت يا صغيرتي شمس جميلة تشرق كل صباح تنشر الضياء ويعم الدفاء، تتلمس بشعاعها كل ما تطلع عليه فتزهر الأرواح والحياة في القلوب والأزهار، وهناك شمسٌ بارعة الجمال لكنها لي وحدي أجمل من كل شمس الدنيا، بعيدة جدا عني هي يا صغيرتي، لكنها تشرق مع كل نبضة حب في صدري، فتلهب العشق بقلبي، وتدفع نفسي، فتستكين الروح على أمل اللقاء»

ما زالت كلماته تلك التي بدأ بها قصته يوما تتردد في أذنيها وهي تخرج ثوبها الذي كانت ومازالت تلجأ إليه كلما اشتاقت لهما، ذلك الذي تحتفظ به بحرص في إحدى جنبات خزانتها، ثوب قديم الطراز جدا بأكمامه القصيرة، وفصّته التي تعود لذلك الزمن الجميل وتُورته الواسعة بطبقاتها المتعددة، لطالما ارتدته فيما مضى، لكنها لم تعد تستطيع في هذا العمر؛ لذلك ربما حان الوقت لتهديه لحفيدتها، لكنها تحتاج أولاً أن تحكي لها عن تلك الشمس التي أشرقت في حياتها، فملأتها بالحياة كما فعلت في حياة كل من حولها، وعن ذلك الحب الذي كان سبباً للصمود برغم كل الصعاب، تحتاج أن تحكي لها تلك القصة التي خرجت عن حدود العقل لكنها تكلمت بحبٍ فاق ما عرفه البشر.

الفصل الأول

أمسك يديها ثم رفعها إلى فمه مقبلاً باطن كفها بيضاء جعلها تشتعل
خجلاً ليضحك هو قائلاً:

- يبدو أنك ستظلين تخجلين حتى آخر العمر يا جميلتي!
ضحكت برقّة وهي تنظر إلى عينيه بحب:

- دائماً أحب أن أتخيل نفسي معك وقد غزا الشيب رأسينا لكن...

قطعت كلامها وهي تخفض عينها وابتسامتها تختفي شيئاً فشيئاً،
فاقترب منها أكثر وهو يرفع رأسها مرة أخرى بيده..

- ماذا هناك حبيبتي؟ ارفعي عينيك وانظري إلي، ماذا يحدث معك
هذه الأيام؟!

تمتت بكلمات مُبهمة وهي تغلق عينها بقوة، لتجده يجرها خلفه حتى
وصل إلى غرفتهما ثم أجلسها وجلس جوارها، نظر إليها بعمقٍ أجفأها،
وجعلها تهرب من عينيه وهي تمسح دموعه خانتها ليقول:

- حبيبتي ما الأمر هل ضايقتك أحدٌ ثانية؟!

صمتت للحظات قبل أن تقول وهي ما زالت تهرب من عينيه

العمر يمر! كم من السنوات مرت، وأنا كالشجرة اليابسة لم يعد بها

أمل أن تورق يوما،

- أخاف أن أسرق شبابك وتندم في كهولتك وأنت بلا سند، تزوج من تلك الفتاة زرقاء العينين التي تريدها أمك لك...

قاطعها بضحكاته التي علت حتى شعرت بالغیظ منه وهي تمسح دموعها بقوة وتلكمه في كتفه فيتصنع الألم وسط ضحكاته.

- أيتها المتوحشة، اعترفي أنك تغارين فقط لأن المرشحة الجديدة زرقاء العينين.

سكنت ضحكاته لينظر إليها بهيام وعشق:

- ألا تعرفين أنني عاشق لحوراء العينين، بل قتيل عشقتها

إن العيون التي في طرفها حور.... قتلنا ثم لم يحيين قتلانا

كانت الضحكات من نصيبها هذه المرة وهي تقول:

- لقد تزوجت حطابا، لم أكن أعرف أنه يحفظ الشعر وسيغرقني به وبكلامه الدافئ.

نظر إليها بعشق أدمنته منه حتى صار ترياقتها الذي تستمد منه الصبر.

- لأجلك حفظت الشعر ولو كنت أستطيع أن أكتبه لكتبت.

ابتسمت له برضا غمر قلبها ثم وقفت وهي تسحبه معها:

-هيا هيا اذهب إلى الغابة واحتطب، ثم عد إليّ سالما يا حبيب القلب
وبلسم الروح.

خرج ساري من منزله الذي بناه على تخوم القرية ليكون قريبا من
الغابة حيث يحتطب كل نهار، كانت الشمس قد طلعت في خجل فداعت
الأرض - التي مازالت تحمل ندى الصباح - ببشائر الدفاء، ونشرت
الضوء الذي تخلل أغصان الأشجار في الغابة فرسم على الأرض
لوحاتٍ من الظلال كأجمل ما يكون إبداع الخالق.

ظل يسير ويتفحص الأشجار ليختار ما يناسبه منها ويضع علامات
عليها يحدد بها القدر الذي يحتاجه من الحطب، ثم انطلق يضرب
بفأسه ما أراد من الأغصان والأشجار، يقطعها ثم يهذبها ويضمها في
مجموعة منتظمة حتى يسهل عليه حملها وهو عائد إلى القرية ليبيعها
في السوق.

كانت الشمس قد توسطت كبد السماء وبدأت أشعتها تحمل الحرارة
الشديدة ومع حركته وعمله بالفأس كان قد تصبب عرقا ونال منه
التعب، فوضع فأسه جانبا وأخذ يشرب من الماء الذي يحمله معه
ويضع القليل منه على رأسه ووجهه ينعش نفسه به، وأتكا على جذع
شجرة ليأخذ قسطا من الراحة يعينه على مواصلة عمله.

جلس يتأمل يديه التي امتلأت بالشقوق والجروح لكنها لم تخفِ
التجاعيد منها وقد نال منها العمر، فما هو قد تجاوز عقده الرابع
وما زال يخرج كل صباح يحتطب وحيدا بلا سند ولا طفل يسحبه معه
ليورثه مهنته وصنعتة، رفع رأسه للسماء يحمد الله ويشكره ويستغفر
لحظة ضعف مر بها وهو يفكر في عجزه وعقمه، ثم لاح له من بين أشعة
الشمس الساقطة على الأشجار خيال زوجته الحسنة فارتسمت على
وجهه ابتسامة عاشق لا يمل ولا يزيد العمر إلا هياما وغراما.

كان لذلك الخيال مفعول السحر على روحه فدب النشاط فيه سريعا
ليكمل عمله وينجز ما يريد كي يعود إلى منزله حيث زوجته وبلسم
روحه وعونه على خطوط الحياة وابتلاءاتها.

راح يضرب الأشجار بفأسه والغابة من حوله هادئة لا أثر فيها للرياح
بل نسيم هادئ ينساب فيها على مهل، انتبه إلى شجرة أعجبه انتظام
جذعها فاقرب منها وضربها ضربة بفأسه لكنها لم تتأثر، وبينما
يستعد لضربة أخرى فوجئ بجذع الشجرة يتحرك وتظهر من تحتها
حفرة عجيبة ليفتح عينيه في ذهول وهو يرى أمامه ما لا يخطر على
عقل بشر!!

أنهت ضحى أعمال منزلها المعتادة مبكرا ككل يوم، ثم قررت جعل اليوم

مميّزا فدارت في منزلها كفراشة رقيقة تعيد تنظيم الأركان حتى تلك التي لم يعبث بها أحد، كانت الشمس قد قاربت المغيب عندما اتجهت إلى شجرة التوت التي زرعها زوجها ساري بجوار المنزل وجمعت منها قدرا معقولا لتصنع به فطيرة التوت التي يعشقها، انشغلت بالفطيرة وإعدادها، ومر الوقت عليها دون أن تنتبه إلى دخول الليل ثم جلست بعد أن أنهت عملها تنتظر عودة زوجها الذي تأخر على غير عادته.

مرت الساعات ومازال غائبها لم يعد، وبدأ القلق يتسرب إليها ويقعات على هدوئها، فيزداد توترها وقد خيم الظلام على المكان، ترددت في الذهاب إلى منزل والدة ساري كي تستطلع الأمر والأفكار تتزاحم في رأسها حتى تكاد تفتك بها: هل ترى أصابه مكروه، أو أنه فقد مقاومته لضغوط أمه واستسلم أخيرا وتزوج بأخرى.

حسنت أمرها وأحكمت حجابها على رأسها، ثم خرجت مسرعة تشد الخطى إلى منزل والدة زوجها، وناراً تشتعل بقلبها والقلق والخوف يتخللان روحها فيرتعش جسدها هلعاً، وتمر بها خيالات شتى فتزيد وتيرة خطواتها دون أن تعير برودة الهواء التي تلفحها بالا وقد طغت نار الروح على الجسد.

طرقت الباب طرقات متتابعة دون توقف ورعشة جسدها تزداد حتى فتحت لها والدة زوجها الباب، فتجاوزتها تجول بعينيها في محيط المكان تبحث عن زوجها فلم تجد له أثراً، لتنتبه على صوت العجوز

المرتفع، وهي تنظر إليها شذرا:

- ما الأمر يا هذه؟ ما الذي أتى بك في هذا الوقت؟ يا إلهي هل هكذا تطرق الأبواب في الليل أيتها الحمقاء؟.

سألتهما بجزع

- هل ساري هنا يا أمي؟!

تغيرت نظرة العجوز وبدأ القلق يرتسم على ملامحها

-ماذا تعنين بأنه هنا، لقد مر عليّ صباحا قبل ذهابه للغابة ككل يوم، هل تعنين أنه لم يعد حتى الآن؟!

ردت بحروف مرتعشة وروحها تكاد تفارقها وقد تصلبت في مكانها

-يا إلهي أن.. أنت أيضا لا تعرفين، لا بد أن مكروها أصابه، ماذا سأفعل يا الله.

دفعته العجوز وخرجت أمام منزلها تصرخ وتنادي على جيرانها من أهل القرية وقد تمكن منها خوفها وفزعها على ولدها:

- يا أهل القرية أدركوني، ضاع مني ولدي وابن بطني، خرج للغابة ولم يعد حتى الآن وقد حل الظلام وهاجت وحوش الليل، أنقذوه قبل أن تدركه المنية هناك وحيدا في ظلمة الليل ووحشته.

كانت العجوز تضرب رأسها بيدها وهي تتكلم وتصرخ بجزع بينما تراجعت ضحى وهي تفكر بهلع في حال زوجها حتى اصطدمت بسور المنزل من خلفها لتفريق على أم ساري وهي تريد أن تهاجمها لولا دفع النساء اللاتي تجتمعن من حولهن وهي تصرخ بها:

- يا إلهي أخذت مني ولدي وربما يرحل ولا يترك من بعده أثرا، أيتها الشمطاء أضعت شباباه بعقمك فضل بلا نسل ولا سند، عاش وحيدا وقد يضيع مني ويموت ليتركني أتحسر عليه ما بقى لي من العمر.

كان دورها لتقترب من العجوز وقد دبت بها القوة لتصرخ بها:

- إياك أن تقولي إنه مات، ساري لن يموت سيعود لي سالما وسيكون بخير، نعم سيكون بخير، قلبي يخبرني أنه سيعود.

دفعتها العجوز بغضب حتى كادت تسقط أرضا وهي تقول:

- قلبك؟ وماذا يغنيني عنه قلبك؟! ولدي يضيع وأنت تتكلمين عن قلبك أيتها المعتوهة، ولدي الذي حرمته من حقه في الولد، عندما يعود سأزوجه بأجمل فتاة في القرية وسيكون له ولد وسند وعون على الحياة، ولتذهبي أنت بشؤمك ونحسك بعيدا عنه.

ثم جلست العجوز أرضا وقد نال ما يحدث من صحتها القليلة لتضع يدها على رأسها، وهي تبكي ضياع ولدها وتتدب حظه العاثر، لم تعر ضحى العجوز بالا وهي تلتفت إلى رجال القرية الذين كانوا قد بدؤوا

بجلب الأسلحة والمشاعل للانطلاق في رحلة البحث في أعماق الغابة،
شدت حجابها على رأسها تعيد إحكامه ثم اتجهت إليهم بحزم:

- انتظروا سأتي معكم، لن أبقى هنا سأبحث عن زوجي بصحبتكم.
اتجه إليها أحد شباب القرية ليقول بدفء وهو يشير لأمه لتقترب معه
ليحاولا إثناؤها عن قرارها المتهور:

- لا تخافي خالتي، نحن لن نعود إلا ومعنا العم ساري بإذن الله،
وجودك معنا سيعرضك للخطر وقد يعوق حركتنا، لذلك من الأفضل
أن تبقى هنا مع أمي والنساء، ولن نتأخر بعون الله.

نظرت إليه بلا تركيز وعينيها مثبتة ناحية الطريق إلى الغابة، وهي
تقول:

- أنا لن أبقى هنا يا ولدي، لن أستطيع سأموت قلقا، سأتي معكم فما
عاد لدي ما أخسره، إما أن أعود به معكم أو أرحل إلى حيث رحل هو.

الفصل الثاني

فتح ساري عينيه في ذهول وهو يرى أمامه ما لا يخطر على عقل بشرا، كانت الشجرة قد تحركت وانفتحت من تحتها فجوة كبيرة جدا، وما أن انفتحت الفجوة حتى بدأ الهواء يتجمع من حولها مكونا دوامة عجيبة، بدأت تحمل معها أوراق الأشجار والأغصان الصغيرة ثم أخذت سرعة الدوامة تزداد، ليفيق هو من ذهوله ويبدأ في مقاومة الرياح وقد استشعر الخطر محاولا الابتعاد عن الفجوة، لكن محاولاته كلها باءت بالفشل، ومع زيادة سرعة الدوامة وجد نفسه يرتفع معها ويدور في فلکها عدة دورات، ثم تسحب الدوامة معها إلى داخل الفجوة، وتختفي تماما، وتعود الشجرة إلى مكانها وكأن شيئا لم يكن.

تسير وسط مجموعة من الشباب تكفلوا بها وأحاطوها من كل جانب، وهي تتلفت يمنا ويسرة، وتتصت بلهفة لكل صوت من حولها، ودقات قلبها تكاد تصم أذنيها في ترقب يؤلم روحها الخائفة، ومن حولها كان الرجال قد تفرقوا في مجموعات صغيرة يحملون المشاعل والأسلحة، فبدت الغاية مضيئة لكنها كانت ما تزال موحشة جدا، فجأة تعالت الأصوات من كل ناحية حولها، ورأت الجميع يهرع في اتجاه شجرة طويلة، فأسرعت تلحق بهم لتسمع صوت أحدهم ينادي «لقد وجدنا فأسا!».

تحلق الجميع حول الفأس المغروزة في الأرض، واقتربت ضحى منهم تنظر للفأس لتكتم شهقتها وهي تتبين فأس زوجها، ثم تقول وهي تغالب دموعها

-إنها فأس ساري.. إنها هي!!

تعالت الأصوات مرة أخرى ليبدأ الرجال في الحركة مع صوت أحدهم:
-تفرقوا في محيط المكان وابحثوا جيدا لا بد أن ساري قريب من هنا.
استمر البحث فترة طويلة دون أن يجدوا أثرا سوى تلك الفأس حتى يئس الرجال وقرروا العودة وبينهم ضحى التي كانت ترفض العودة، وكادوا يسحبونها سحبا لتعود معهم إلى القرية.

يعمل بصمت وفكره مشغول، لكن يديه اللتين تمرستا على العمل كانت تعمل بإتقان يشهد به الجميع منذ وصل إلى هنا، لا يعرف متى ولا كيف وصل إلى هذا المكان، لكن ما يعرفه جيدا أنه لا بد أن يستخرج أكبر قدر من الذهب في يومه ليحصل على الطعام في نهاية اليوم، السقف من فوقه كان خشبياً منخفضاً وقد ثبت بعروق من خشب صلب، كان المكان ممتلئاً بالرجال يعملون في مجموعات، كل مجموعة بها ما يقارب أربعة رجال في مقتبل العمر يحمل كل منهم منخلا كبيرا يغرف به قاع الماء الذي يجري في مجرى في وسط المكان، ثم يستمرون في

نخل مزيج الطمي والماء ليحصلوا على الذهب في مناخلهم، ويفرغوا ما جمعوه في صناديق كبيرة وضعت من حولهم ،
انتبه لصوت عالٍ بجواره ليجد أحد الرجال من حوله قد دفع زميله الذي يجاوره قائلاً:

-أنت أيها الأحمق هناك أعطني بعض الذهب من صندوقك بدل الطعام الذي أخذته مني أمس.

ليرد الثاني دفعة زميله ثم يجيب وهو يقترب من حمزة:

-تريد افتعال مشكلة!! لن أعطيك شيئاً أنت من بدأ بأخذ نصيبي من قبل ويشهد عليك الجميع، أليس كذلك يا حمزة؟
رد حمزة وهو يبتعد عنهم:

-أنا لست متفرغاً لكما، أريد أن أنهي عملي بلا مشكلات اذهبوا بمشاكلكم بعيداً عني.

كان قد ابتعد في نفس الوقت الذي بدأ فيه الشجار بين الرجلين، وبدأ أغلب الرجال بالمشاركة فيه، بينما أخذ هو ركناً بعيداً ليكمل عمله بعزم فهو بحاجة لأكثر كمية من الطعام ليطعم تلك الفتاة الصغيرة التي لا يعلم حتى الآن كيف وصلت إلى هنا!!

الفصل الثالث

دارت الدوامة دوراتٍ عدة وساري يتخبط بداخلها، عندما أيقن أن المقاومة ما عادت تجدي نفعاً، سلم أمره واستسلم لها، وأغلق عينيه يحمي نفسه من الدوار، ظل في دوامته حتى أحس أنه قد اصطدم بشيء صلب، وتوقف عن الدوران، وبدأ صوت رياح الدوامة يختفي رويدا رويدا، كان متوجساً من فتح عينيه، فبقي على وضعه عدة لحظات يحاول أن يسترد أنفاسه ويستعيد توازنه، ثم فتح عينيه ببطء ليجد الظلام في كل اتجاه، مر الوقت وهو ثابت في مكانه يحاول استيعاب ملامح المكان الذي هو فيه، عندما أخذت عيناه تعتاد الظلام بدأت بعض تفاصيل المكان من حوله تتضح، كانت الحجارة والصخور من حوله في كل ناحية وكأنه في كهف كبير ممتدٍ إلى ما لانهاية، حالك الظلام لا أثر فيه لضوءٍ سوى قبس شعاع يظهر بعيداً جداً لا يجدي في ظلمة المكان شيئاً،

بدأ يتحرك ليستكشف المكان ويقترّب بحذر من مصدر الضوء البعيد، كلما اقترب كانت التفاصيل تتضح أكثر، كان كهفاً كبيراً جداً، لكنه كان مقسماً بالأخشاب فيما يشبه الحجرات الصغيرة على جانبي المكان، وفي المنتصف ممر يمتد بطول المكان.

ظل يسير ببطء وإرهاق وآثار الدوار الذي أصابه من تلك الدوامة العجيبة تجعله يترنح بين العين والآخر، حتى وصل إلى نقطة أصبح الضوء فيها واضحا، وبدأت بعض الأصوات تصل إليه، فأسرع الخطى لعله يجد طريق الخلاص.

وقف حمزة في الطابور بهدوء كالمعتاد، يحمل فوق كتفه صندوقه الثقيل الذي جمع فيه الكثير من الأحجار الذهبية، أكثر ما يكرهه هو طابور التسليم، لكنه كالعادة يجيد إخفاء ضيقه بمهارة، المكان كان ضيقا ومنخفضا وكان هو يفوق كل الواقفين في الطابور طولا مما كان يحمله على أن ينحني قليلا ليتجنب الاصطدام بالسقف الخشبي، التفت لأحد زملائه ينادي عليه بصوت منخفض:

- حمزة لماذا تصر على أن تحمل الصندوق على كتفك، أنزله أرضا حتى يحين دورك

رد وهو يرفع أحد حاجبيه بنظرة ذات مغزى:

- وما دخلك بصندوقي يا هذا، أم تريد أن تسرق بعضا من ذهبي كما تفعل دائما؟!

انكمش الرجل قائلًا وهو ينظر بخوف إلى حمزة بطوله وضخامة جسمه:

-أنا!!... أقسم أنني لا أسرق شيئاً يا حمزة.

رد حمزة بلا مبالاة وهو يتقدم خطوة بعيداً عن الرجل:

-لا تقسم أيها المخادع، فأنا أراك كل يوم وأنت تأخذ الذهب من صندوقي، لكنني اليوم جائع جداً وأريد ذهباتي كما هي بتمام عددها، فابتعد عني وانشغل بنفسك، أو ابحث عن صندوق آخر لتسرق منه.

تجلس في مكان زوجها المفضل، في شرفة المنزل على الكرسيّ الخشبي الهزاز تتلمس ذراع الكرسيّ الذي صنعه هو بيديه، وكأنها تتلمس ذراع زوجها، حُرقة الشوق بقلبها لا يطفئها شيء حتى يقينها باللقاء، روحها تتخبط في صراع ما بين الخوف واليقين، والضياع هو إحساسها الوحيد الثابت منذ لحظة الفراق، تلفُّها الحيرة لا تعرف للخلاص منها سبيلاً، انتبعت لصوت أنين خافت يأتي من خلفها فقامت بسرعة إلى الحجرة لتجد أم ساري تبكي بصوت خافت وهي ممددة في السرير، فمنذ عودة الرجال في ذلك المساء خالي الوفاض قد فقدت العجوز قدرتها على الحركة، وبقيت طريحة الفراش، لتجلبها ضحى معها إلى منزلها ترعاها وتستأنس كلتاها بالأخرى، وقد ضاع منهما أغلى ما عندهما فجمعهما فراق الأحبة، أسرعت تسندها لحافة السرير وهي تمسح على ظهرها برفق وتقول من بين دموعها:

- لا تجزعي أمي سيعود، أقسم لك أنه سيعود كوني بخير ليجدك في انتظاره معي.

ردت العجوز بصوت منهك مصبوغ بالفقد والعجز

- كيف سيعود يا ابنتي وقد خرج الرجال للبحث ولم يجدوه، كيف سيعود، ولا أثر من خلفه ولا دليل، آه ياليت لي قلبا كقلبك مفعم باليقين، فالفقد أهلك روعي قبل جسدي.

ردت ضحى وهي ترسم بسمه باهتة بلا معنى وتربت برفق على ظهر العجوز

-كوني بخير أمي واتركي الأمر لله، فهو رحيم عالم بعجزنا وحالنا، ولن يضيعنا.

بدأت الرؤية تتضح ليري ساري منظرا عجيبا لم يعرف له تفسيراً، كان أمامه صف طويل من شباب في مقتبل العمر يحملون صناديق كبيرة، وبعض الرجال الأشداء يقفون على باب خشبي كبير، وأمامهم طاولة خشبية عليها بعض الأصناف من الطعام، كان الرجال الأشداء يأخذون من الشباب الصناديق ويفرغونها في مكان ما داخل الغرفة ثم يعطونهم من أنواع الطعام أمامهم، قبل أن يتحرك أو يصدر أي فعل حقيقي.

رأه الرجال، وبدأت الجلبة في المكان وعلت أصواتهم:

-دخيل بالمكان أمسكوه بسرعة.

لم يكن قد استوعب الأمر بعد، وقد وجد نفسه مكبلا ومحاطا بالرجال
الأشداء من كل ناحية

- من أنتم وأين أنا، وما هذا المكان الغريب أنا لا أفهم شيئا؟!

لكزه أحد الرجال بقوة في كتفه من الخلف قائلاً:

-كيف دخلت إلى هنا أيها العجوز الأحمق، سيقمتلك الزعيم بلا شك،
فلا فائدة ترجى منك.

ثم التفت إلى بقية الرجال قائلاً

- اذهبوا به إلى كهف الباولونيا حتى يقرر الزعيم مصيره.

الفصل الرابع

ابتعد حمزة عن الجلبة التي أحدثها زملاؤه وهم يشاهدون الحرس يجرون العجوز جراً من وسط الحشد، لم يكن مستعداً لأية خسائر لذلك اتجه إلى الطاولة ليقف في الطابور وحده في انتظار أن يفيض الحرس الفوضى ويعيدوا النظام، طال الوقت حتى عادت الأمور إلى طبيعتها ليتوجه إلى مكان نومه بهدوء وهو يحمل ما حصل عليه من طعام بحرص شديد، لم يكن من قبل مهتماً بالطعام بل كان يترك صندوقه متاحاً للجميع، لكنه اليوم حرص عليه من أجل أن يعود بطعام يكفي الصغيرة، عندما دخل مخدعه أغلق من خلفه الباب الخشبي وبدأت عيناه تجوب المكان بحثاً عنها،

وجدها أخيراً منكمشة بجانب السرير، فتأداها بصوت خافت:

- تعالي أيتها الصغيرة أحضرت لك الطعام.

ازداد انكماش الفتاة على نفسها، فابتعد عنها قليلاً ليقول:

- لا تخافي مني أنا لن أؤذيك هيا تعالي لتأكلي.

لما تيقن أنها لن تقترب قُرب الطعام منها ببطء، ثم جلس بعيداً يتشاغل عنها لتطمئن وتأكل، لكنه لم يقاوم اختلاس النظر إليها بنظرات متأملة يسرقها حال تخفض هي عينيها.

كانت فتاة صغيرة بشعر بني ناعم معقوص في ضفيرتين زادتاها براءة وجمالاً، لها عيون عسلية لامعة برغم الخوف فيهما كانت لمحة من القوة تشع منهما بيريح أخذ، ومضات غريبة مرت برأسه لفتاة صغيرة تشبهها، لكنها كانت صورا غير واضحة نفضها كما يُنفض رماد سيجارة محترقة فلا فائدة ترجى منها، فلا هو يعرف من أين أتت، ولا ومضاتها الخاطفة تكتمل لتكون صورا حقيقية.

أعاد النظر إلى الصغيرة التي بدأت تبادلته النظرات لفترة ثم لما ايقنت أنه لن يؤذيها، اقتربت من الطعام لتأكل بنهم وجوع حقيقي رسم ابتسامة سعادة على وجه حمزة لم يعرف مثلها منذ وقت طويل.

فاق ذهول ساري قدرته على الاستيعاب، جسده كان قوياً، وكان يستطيع مقاومة الرجال لكن المفاجأة كانت أكبر منه، لذلك انساق معهم بمقاومة ضعيفة بقدر ما سمحت به روحه المرهقة التائهة.

فجأة توقف الرجال عن دفعه فارتفعت عيناه تستكشف المكان، وجد نفسه يقف أمام باب خشبي، عندما فُتح لهم انحنى الرجال وهم يدفعونه بينهم إلى داخل كهف صخري، سقفه كان مزيناً بقطع خشبية مطعمة بزخارف غريبة، ويتوسط السقف رسمٌ لشجرة الباولونيا التي عرفها ساري، وميّز خشبها الصلب الذي امتلأ به المكان، في وسط الكهف وضع كرسيٌّ خشبيٌّ بحوافٍ ضخمة جعلته أشبه بعرش صغير،

جلس عليه رجل في العقد الرابع من عمره بوجه مكتنز عليه آثار النعيم،
وعيون حادة بنظرات قوية، ما إن وصل الرجال حتى دفعوا ساري فكاد
أن يسقط لولا أنه تمالك نفسه ليعتدل بغضب قائلاً

- بأي حق أعامل هكذا؟ من أنت؟ ومن هؤلاء الحمقى وأين أنا؟!

أسرع الرجال يحيطون به بينما اقترب الزعيم ليرد بنبرة مرتفعة وهو
يقف مواجهاً لساري

- أنت هنا في عالمي أنا، في كهوفي الذهبية، وللأسف أيها العجوز لا
مكان للعجائز والضعفاء هنا.

صرخ به ساري، وهو يحاول التخلص من الرجال:

- عن أي عجوز تتكلم أيها الأحمق أنا في مثل عمرك بل ربما أصغر منك
حتى، ثم عن أي عالم تتكلم أنا لم أر هنا إلا كهوفا لا تعرف النور؟!

ضحك الزعيم ضحكة عالية جداً ثم اقترب من طاولة وضعت في مكان
قريب ليحضر امرأة صغيرة ويقربها من ساري قائلاً:

- لا بد أن الأمور قد فاقت قدرتك على الاستيعاب أيها العجوز المسكين،
انظر إلى وجهك لتتأكد أنك قد تجاوزت الستين أو ربما السبعين من
عمرك، فقد ابتلعتك دوامة العمر على ما يبدو.

مد ساري يده يجذب المرأة بعنف وهو يرى النظرة الساخرة في عين
من سمّوه الزعيم، ثم نظر إلى المرأة ليصيبه الدهول وهو يرى ملامح

وجهه المجددة ولحيته الطويلة شديدة البياض ليرمي المرأة بجزع وهو يصرخ قائلاً:

-يا إلهي ماذا يحدث هنا، أنا سأجن حتماً؟!

عدّلت ضحى فراش أم ساري ثم أجلستها، وقد حضرت إحدى جاراتها لزيارتهم،

رحبت العجوز بالمرأة بصوت واهن ومتعب:

-أهلاً بك يا أم يوسف، كيف حالك وحال أولادك؟

ردت الجارة وهي تتأسف على حال العجوز:

-بخير، كيف حالك أنت يا أم ساري؟

ما إن ذكرت المرأة اسم ساري حتى بدأت العجوز بنوبة جديدة من البكاء، وقد تجددت عليها المواجه التي مازالت لم يطلها القدم أو النسيان، اقتربت منها ضحى تربت على كتفها وتشاركها البكاء كما شاركتها الوجد وألم الفقد.

ليعلو صوت الجارة:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، لماذا لم يذهب الرجال مرة أخرى للغابة ربما وجدوا شيئاً أو أثراً ما؟!

ردت ضحى من بين دموعها:

- ذهبوا يا خالة، ذهبوا مرتين ولم يجدوا شيئاً، وتفقدا مكان الفأس
وحوله ولا فائدة.

شهقت المرأة وقد تذكرت شيئاً لتقول:

- انتظري، ضحى يا ابنتي اتعرفين سمعت أن امرأة في قرية مجاورة
لنا كان ولدها قد ضاع وتاه عنها، وأنها ذهبت إلى رجل يقرأ الطالع
ويضرب الودع، يدور في أسواق القرى حولنا فأخبرها عن مكان ابنها،
وأنه في قرية أخرى، وفعلاً وجدته حيث أخبرها ذلك الرجل، أظنه
سيأتي في سوق القرية بعد عدة أيام، لم لا تذهبين إليه ربما يعرف
شيئاً؟!

نظر حمزة بحيرة إلى الصغيرة النائمة في فراشه، وتذكر كيف أنهت
طعامها ثم عادت تتكمش في مكانها، أراد أن يواسيها ويهدئ من
روعها، لكنه عجز عن الكلام، فظل يبادلها النظرات في صمت حتى
نامت ليحملها ويضعها في فراشه.

كان يستعد للذهاب مع مجموعته إلى المنجم، ولا يستطيع تركها
في فراشه، فقد تسوء العاقبة إن رآها أحد خاصة بعد ما حدث مع
العجوز بالأمس، لذلك أيقظها برفق لتفتح الصغيرة عينيها وتتنظر إليه

بأندهاش،

بادلها هو النظرة بحنو عاجز ليقول لها بصوت منخفض:

-استيقظي صغيرتي، الحرس قادمون، عليّ أن أخفيك في مكان ما قبل أن يأتوا، وسأذهب أنا لجلب الطعام ثم أعود، وإياك أن تخرجي من مكانك أو تظهري لأحدٍ أيّا كان، هل تفهميني أيتها الصغيرة؟!

هزت الفتاة رأسها دون رد لبتابع كلامه:

-حسنا هيا قومي واختبئي في مكانك هناك.

لتعتدل الصغيرة ببطاء، ثم تعود إلى ركنها المنزوي بجانب السرير ويخرج هو، وقد ترك عقله معها.

الفصل الخامس

صمت ساري للحظات وهو يلمس لحيته البيضاء بيده في ذهول، ثم ينظر إلى يده التي امتلأت بالتجاعيد ثم إلى ثيابه محاولاً أن يتذكر آخر ما مرَّ به، فلا يجد جواباً يهدئ من روعه، فأخر ما يذكره تلك الدوامة اللعينة، ودخوله إلى هذا المكان العجيب، وهاهو يرى نفسه هنا بنفس ثيابه التي يذكرها، لكنه الآن عجوزٌ مجعِدُ اليدين، وكأن الزمان قد داربه دورته دون أن يعلم كيف أو متى دارت، رفع عينيه فالتقت بعيني ذلك الرجل الحادة وقد تشبعت نظرتَه بسخرية مقيتة جعلت دماءه تغلي غيظًا، ليقول بغضب:

- أيها اللعين ماذا يحدث هنا؟، أنت سبب ما أنا فيه بلا شك أنت وعالمك البغيض المظلم هذا، سأقتلك إن لم تخبرني ماذا يجري هنا؟
ثم نظر إلى الحرس ليتابع كلامه:

-ليخبرني أحدكم ماذا يحدث هنا؟!

علت ضحكة الزعيم الساخرة، فاندفع ساري يحاول أن يهاجمه، وهرع الحراس يمسكون به بينما رجع الزعيم بضع خطوات للخلف دون أن يرمش له جفن والسخرية مازالت تعلق وجهه، ليقول بغرور من بين ضحكاته:

- هنا لا أحد يفهم شيئاً، هنا في عالمي الطاعة عمياء والكل أصم إلا عن أوامري!!

ثم ارتفعت نبرة صوته، واصطبغت بالقسوة وهو يكلم الحراس:

- هيا خذوا هذا العجوز من هنا، لقد أخذ من وقتي أكثر مما ينبغي، ضعوه في أبعد كهف ممكن وتأكدوا من غلقه جيدا، ليتني كنت أستطيع أن أتخلص منه ومن أمثاله فوراً.

أنهى حمزة عمله واستلم الطعام مقابل ما جمعه من ذهب، ومضى يحمله بحرص والقلق يأكله على الصغيرة الصامتة التي تركها في مخدعه، حائر هو عاجز عن فعل شيء، عقله لا يسعفه بحل ولا قرار فكيف لتائه لا يعرف أين هو ولا من أين جاء أن يتقذ أحداً، لكنه على يقين أن عليه حماية هذه الفتاة الصغيرة من الحراس وإخفاءها جيداً عن أعينهم بل وأعين الجميع، وإلا أصابها ما أصاب العجوز الذي رآه ذلك اليوم، والحرس يجرونه جرّاً كما جروا من قبل كل من أعترض أو خالف الأوامر، أكمل طريقه بعزم وهو يحاول الوصول قبل الجميع، لكنه لمح فتاته الصغيرة تقف خارجاً فاندفع سريعا يكاد يجن من حماقتها. كانت الصغيرة تقف وقد وجدت في نفسها أخيراً قدراً من الشجاعة لتستكشف المكان، فوقفت على باب الحجرة بحذر وهي تخفي نفسها

قدر ما تستطيع، لكنها ما أن خرجت حتى لمحت الحشود القادمة في بداية الممر الصخري الذي يحوي في جانبه حجرات النوم الصغيرة، فأسرعت تدخل حجرة حمزة وتختبئ بجانب السرير بلا حراك والخوف قد نال منها ،

دخل حمزة الحجرة يبحث عنها وهو يحاول أن يتمالك أعصابه قدر المستطاع ويحمد الله سرا أن أحدا لم يلمح هذه الحمقاء الصغيرة، وجدها في مكانها الذي تختبئ فيه، فنظر إليها نظرة غاضبة ليقول وهو يعض شفتيه ويجاهد لخفض صوته:

- أيتها الحمقاء ألم أخبرك ألا تخرجي من مكانك حتى أعود، هل تعرفين ماذا كان من الممكن أن يحدث لك؟!

كانت نظرات الخوف في عينيها تجلده لكنه أصر أن يزيدا كي لا تعود إلى الخروج مرة أخرى فأكمل بنفس النبوة:

- كان من الممكن أن يراك الحراس أو أحد العمال وساعتها ربما كانوا يسحبونك إلى ذلك الكهف الذي لا نعلم عنه شيئا، وربما يقتلونك هناك أيضا.

بدأت الفتاة ترتجف، وقد ثنت ركبتيها وضمتها إلى صدرها، ولفت ذراعيها حولها ودموعها تتساقط في خوف شديد، وهي تهمهم بكلمات متقطعة من البكاء لم يفهم منها إلا جملة واحدة:

- أريد أُمي -

ليرد بعجز وقد غطت شفقتة غضبه:

- يا إلهي، ليتني أستطيع أن أُعيدكِ إليها، لكنني لأعرف من أتيت،
ولا أعرف كيف أحملك منهم لذلك عليك ألا تخرجي حتى نعرف ماذا
يجب أن نفعل هنا.

ضياح ودمار وظلمة كهفٍ بلا قرار

وروحٌ هائمة أضحت كعود بلا أوتار

تتوق لروحٍ كانت تمنحها الحب والدفء كشمس النهار

فلما غابت صارت الحياة كليل شتاءٍ قارس بلا أقمار

منذ سحبه الحراس وألقوا به في هذا الكهف المظلم المعتم إلا من
ضوء صغير جداً لا يجدي في حلقة المكان شيئاً، وهو هائج غاضب قد
وصل منه الغضب أقصى حد، وعلا صراخه وهو يضرب ما تطاله يده
بعنف زاده اليأس حدة، ظل هكذا حتى أنهكه التعب فسنة الكبير - الذي
هو حديث عهد به - لا يحتمل هذه الحركة الكثيرة، اشتدت وتيرة تنفسه
وزادت دقات قلبه من التعب، فاستند إلى الجدار الصخري للكهف وقد
بلغ عجزه منتهاه، وأغمض عينيه فلفحت روحه حرارة الشوق إلى شمس

حياته وسراجها ،

ترى ماذا تفعل الآن؟!

أتراها حزنت عليه كما يتقطع هو حزنا وشوقا إليها؟!

أما زالت تبحث عنه أم أن مرور السنين أصابها باليأس؟!

أتراها عاشت هذه السنين أم مرت عليها كما مرت عليه دون أن يشعر؟!

خواء يلفني يبتلع الروح لا مهرب منه ولا ملاذ

يكاد يفضيها لولا بقيةٌ من أملٍ قارب على النفاذ

كعادتها الجديدة تجلس بشرود في الشرفة، تجول في أروقة الذكريات
عنها تروي عطش الروح إلى غائبها الأثير، تتمسك بثبات واهٍ ترسمه
بإتقان يخدع من حولها فيراها متماسكة صلبة بينما داخلها ينهار
قطعة قطعة، يبتلعها خواء من داخلها ومن حولها وقد غاب عنها من
كان يتقن حلّ أحجيات القلب ويحيي الروح.

أغمضت عينيها فرأته يجاورها وهي تسقي زهرة البنفسج في إصيصها
في الشرفة قائلاً:

-يوما ما سأزرع لك حديقة كاملة من البنفسج فقط.

رفعت إليه عينيها لتسأله:

-لماذا البنفسج وحده، أنا أحب كل الزهور؟!

اقترب منها أكثر وقد مد يده يحتوي كفها في راحتيه ويجيبها قائلاً:

- لأنها تشبهك كثيراً.

ضحكت برقة ليكمل هو:

- ملكية وبهية الطلة مثلك، جميلة حتى بحزنها، أحسُّ بها أنفة كأنفتك
وشموخاً كشموخك، لكنه شموخ رقيق يذهلني كيف جمع القوة والرقّة
معا بلون واحد، أما عطرها يا جميلتي فيبهج الروح كأنما يعتذر اعتذاراً
رقيقاً عن لمسة الحزن بها.

عادت من شرودها لتقوم من مكانها باحثة عن إصيص البنفسج لتجد
الزهرة به قد قاربت على الذبول فهرعت تجلب لها بعض الماء لعلها
تتعش وتتعش معها الروح، وقد عزمتم أن تسلك كل الدروب علّها تصل
لخبر من زوجها أو أثر.

الفصل السادس

خرجت ضحى من منزلها - بعد أن تركت إحدى جاراتها مع أم ساري لتهتم بها إلى حين عودتها متجهة إلى سوق قرية قريبة بعدما أخبروها أن الكاهن الذي يقرأ الطالع ويكشف الأسرار سيكون هناك في خيمة ينصبها بأطراف السوق.

عندما وصلت بحثت عن الخيمة فلم تجدها في المكان الذي وُصف لها، وقفت للحظات ثم قررت أن تسأل أحد العابرين لعله يدلها، جالت عيناها في المكان من حولها حتى وجدت رجلا عجوزا فاقتربت منه قائلة:

-سيدي إذا سمحت، أين أستطيع أن أجد المشعوذ الذي يزور السوق.
رد الرجل وهو ينظر إليها باستنكار:

-ماذا تريد من ذلك الدجال الكاذب، إنه لا يفقه شيئاً بل يخدعكم ليسرق أموالكم.

صمتت ضحى وقد علا التردد نظراتها فتابع العجوز بضحكة مستنكرة:
-أرى أنك لا تصدقينني، حسنا يا ابنتي، على كل حال ذلك المشعوذ مخادع في مواعيده كما هو في كل حاله فهو يتأخر أحيانا وأحيانا أخرى

لا يأتي أصلا، ولكن هذا مكان خيمته و لتفعلي ما تشائين.

ظلت ضحى واقفة تنظر للمكان بحيرة بعدما تركها العجوز ورحل وهو يضرب كفا بكف حتى انتبهت إلى صوت بكاء منخفض من خلفها فالتفت لتجد امرأة تقف مستندة إلى شجرة قريبة تبكي وهي تخفي وجهها بين يديها، انتظرت حتى رفعت المرأة رأسها فرأت فاتنة في مقتبل العمر عيونها جميلة بلون العسل لكنها مغرقة في الدموع والحزن، لم تتردد ضحى للحظة وقد غلبها شعور الأمومة نحو الفتاة، فأتجهت إليها تربت على كتفها بحنان أم محرومة.

ضاعت محاولات حمزة في تهدئة الطفلة عبثا، وأخذ صوتها يرتفع أكثر، ظل يدور في حيرة حول نفسه لا يعرف كيف يتصرف ويسكت هذه الحمقاء الصغيرة قبل أن يسمعها الحراس، حاول أن يقترب منها ببطء، لكنه ابتعد بسرعة عندما وجدها تزيد من بكائها ليتحول إلى صراخ، وقد أيقن أن الجميع سمعها بلا شك، فجلس مستسلما ينظر إليها من بعيد منتظرا اللحظة القادمة بعجز، بينما ظلت هي تنظر إليه بخوف.

لم يتأخر الأمر حتى سمع الأصوات تلعو في الخارج فزمجر بغيظ و غضب:

- ماذا فعلت أيتها الحمقاء، أخبرتك أنهم سيأخذونك إن لم تصمتي إلى كهف بعيد وحدك.

ازدادت نظرات الصغيرة خوفا وهي ترى الباب يدفع بقوة والحراس قد اقتحموا الغرفة وأحاطوا بحمزة وصوتهم يعلو وهم يصرخون به

- ماذا يحدث هنا، وما هذه الأصوات التي خرجت من هنا يا حمزة؟! مع صراخ الحرس ألجم الخوف الصغيرة فكفت عن البكاء فجأة، تحرك حمزة ليتراجع إلى الوراء ببطء وهو يحاول أن يغطي مكان الفتاة الصغيرة بجسده ويرد بصوت حاول أن يجعله هادئا واثقا:

- لا أعرف عمّ تتحدثون، كنت نائما وأستيقظت على أصواتكم وصراخكم ماذا تريدون مني؟!

أخذ الحراس يدورون في المكان يفحصونه ليقول أحدهم وهو ينظر إلى حمزة

- حمزة مجتهد مسالم لا أظنه يحب المشاكل أو يقربها، أليس كذلك حمزة؟!

وقف حمزة ينظر للحراس دون رد وقد بدأت نفسه تهدأ قليلا، وساعدته ظلمة المكان على تغطية الصغيرة بجسده، لكن شهقة بكاء خرجت منها جعلت الحراس يرجعون على أعقابهم بعد أن هموا بالخروج، ليدفعه أحدهم ويفتش المكان من جديد فيجد الصغيرة منزوية بركن

بجانب السرير.

قبل أن يتمكن من جذبها كان حمزة يدفعه بعنف ليبدأ في العراك مع الحراس في محاولة يائسه منه لحماية الصغيرة منهم حتى وهو يعرف أنه لن يتمكن من ذلك، مرت دقائق وحمزة يتلقى ضربات شديدة ويسدد أشد منها حتى كاد أن يقضي على بعض الحرس لولا أنهم تكاتفوا عليه، فارتدى متألماً على الأرض ينظر إلى صغيرته التي حملها أحد الحراس على كتفه وهي تصرخ وتمد يدها إليه لينقذها منهم، فيشعر أن روحه قد سلبت من جسده وهو عاجز عن الحركة أو فعل شيء لها.

رفعت رُبا رأسها تنظر إلى المرأة التي تربت على كتفها لتجد امرأة تكبرها سنا بوجه لطيف يشع حنانا جعل الدموع تنهمر من عينيها أكثر ويرتفع صوتها بنوبة بكاء حار، فاستسلمت للمرأة وهي تشدها إلى حضنها بحنان لتدفن نفسها في حضنها أكثر.

مرت لحظات والمرأة تحتويها وتربت على ظهرها حتى هدأت إلا من همهمة منخفضة فرفعت المرأة برفق من حضنها لتسألها باهتمام حقيقي أسرها

- يا إلهي ما بك أيتها الجميلة؟! اهدئي حبيبتني.

ثم جذبتها من يدها برفق لتجلس على صخرة قريبة وتجلسها بجوارها
وتكمل بحنانها

- هيا أخبريني عن سيب بكائك الشديد ربما أستطيع أن أساعدك؟!

نظرت رُبا إليها بعجز لتقول من بين شهقات بكائها:

- لقد اختفت طفلي الصغيرة، ضاعت مني وجئت لهذا الرجل ليعيدها
إليّ لكنني لم أجده، ولا أعرف ماذا أفعل قلبي يؤلمني.

شهقت المرأة بقوة وهي تشد على يد رُبا قائلة وقد أوشكت على البكاء
هي الأخرى:

- يا إلهي صغيرة أنت على ألم الفقد يا فتاتي، صغيرة لا أظنك جاوزت
العشرين، أنا أشعر بك جدا فقد فقدت زوجي أيضا وآه من ألم الفقد،
أحكي لي حبيبتي كيف ضاعت ربما أستطيع أن أساعدك بأي شيء.

ردت رُبا وقد بدأت تشعر بالألفة:

- أنا أعمل في قصر رجل غني يدعى طاهر، وكنت أخذها معي كل يوم
وأمرها ألا تتحرك بعيدا عني فالقصر كبير محاط بحديقة ضخمة
مخيفة، وهو رجل يكره الأطفال، لكنها في ذلك اليوم ابتعدت عني دون
أن انتبه لها ومن وقتها لم أجدها، بحثت في كل مكان هناك، حتى تلك
الحديقة دخلتها دون علمه ولم أجد لها أثرا أبدا.

انتبه الزعيم لصوت الجلبة الذي علا بالكهف ليجد أحد الحراس يدخل المكان وهو يحمل فتاة صغيرة على كتفه لا تكف عن رفضه وضربه بيديها وبكاؤها يملأ المكان، أقترب الحارس من الزعيم وأنزل الفتاة إلى الأرض، للحظة هدأت الفتاة وهي تنظر حولها وفي اللحظة التالية كانت تفتح عينيها بفزع وهي تنظر إلى الزعيم وتبدأ في الصراخ بهستيريا وفزع أكبر، بينما كان هو ينظر إليها بذهول شديد.

أسرع الحارس يحمل الفتاة مرة أخرى ويحاول تكميم فمها بيده، ليعم الهدوء مرة أخرى إلا من صوت همهمات صراخها المكتومة

نظر الزعيم إلى الفتاة ليقول

- كيف دخلت إلى هنا يا هذه، لقد نبهت أمك الغبية أنني أكره الأطفال وأظن أنها أخبرتك أن لا تتبعدي عنها كيف وصلت هنا؟!

صمت للحظة ليكمل وهو يرفع أحد حاجبيه وينظر إلى الصغيرة التي ملأ الفزع والخوف نظراتها:

- هل لحقت بي أيتها المتلصصة؟! لا بد أن أمك الآن تبحث عنك وتدور في الأرجاء تفضح الأمر، لا بد أن أتخلص منك بسرعة، فهناك يمكنني الخلاص ممن أريد ببساطة شربة الماء.

ليرفع رأسه ناظرا إلى سقف الكهف وهو يتابع كلامه:

-أما هنا فلا قتل ولا دماء!!

خذوا هذه المصيبة الجديدة إلى أبعد مكان ممكن لا أريد أن أسمع
صراخها أو أراها.

جلس ساري مستندا لأحد صخور الكهف يتناول الطعام الذي يتفضل
به الحراس عليه، كان يأكل على مضض لأنه يحتاج لكل لقمة من هذا
الطعام كي تعوضه عن المجهود الذي يبذله، فهو لم يكن ليستسلم أبدا
لذلك كان يدور في الكهف الذي حُبس به يبحث عن أي مخرج محتمل
ويختبر أنواع الصخور ليرى قدرته على حفر مخرج في هذا السجن
العجيب.

وبينما كان يمضغ طعامه شاردا يفكر في حال أمه المسكينة وماذا حل
بها من بعده وهي وحيدة ليس لها معين ولا ولد، انفتح باب الكهف فجأة
على غير العادة في هذا الوقت وصوت صراخ طفلة عالٍ يشق سكون
المكان.

الفصل السابع

كهف البولونيا كهف من الأسرار

يشقه نهرٌ بأعماقه الذهب صافٍ كشمس النهار

من حوله صخور ملساء صماء وأحجار

إن مستها دماءً ثارت بعاصفة هوجاء وإعصار

ما زالت الكلمات تردد في أذنيه كما كان يرددُها والده عليه ثم يتبعها

بقوله

- عندما ينفث الكهف لك يوما يا طاهر، إياك أن تسمح لأحد بتدميره

مرة أخرى فهو طريقك إلى النعيم، إياك ثم إياك!!

انتبه من ذكرياته على صوت قائد الحرس يطلب الإذن، أذن له فتقدم

قائلًا:

- سيدي الزعيم ماذا نفعل مع الشاب الذي كان يخفي الفتاة؟

صمت للحظة مفكرا ليقول:

- لقد نسيته، أين هو الآن؟

أجاب الحارس

-إنه في غرفته فبعد أن ضرب الحراس وتعارك معهم بشدة تركوه هناك مصابا وأخبرتهم بترك أحد الحرس على بابه حتى تأمرنا ماذا نفعل به.

انتفض الزعيم بشده وهو يجر قائد الحرس من مقدمة ملبسه:

- أيها الأحمق ألم أمنعكم من القتال أو ضرب أحد، ألم أخبرك أننا لا نستطيع قتل أحد هنا!!

رد قائد الحرس

- سيدي إنه شاب قوي البنية حاول الحراس أخذ الفتاة دون المساس به لكنه كان عنيفا جدا معهم ولم يتمكنوا من أخذ الفتاة إلا بالعراك معه.

دفعه الزعيم بقوة ثم قال:

- هذا ما كان ينقصني، أتركوه لكن إياكم أن تغمضوا عيونكم عنه تابعوا كل تحركاته لعلني أعرف كيف وصلت تلك المزعجة إلى هنا.

ليرد القائد بتردد:

-أمرك سيدي ولكن ماذا بشأن الفتاة سيدي، هي لم تكف عن الصراخ وأخاف أن تموت أو يصيبها شيء.

تههد الزعيم بغيظ:

-ألا يمكنك التفكير أبدا، لا تضعها وحدها إذا، ضعها برفقة إحدى العجائز.

رد القائد وهو يتراجع منصرفا:

-أمرك سيدي.

أخذ طاهر ينظر في مدخل كهفه حيث أختفى قائد الحرس مفكرا في كلمات والده التي تكبله بقيدها فلا يستطيع منها فكاكا، فهولن يجازف بتدمير الكهف، ولن يقدم أبدا على إراقة قطرة دم واحدة هنا، لكنه يحتاج حلا سريعا وحاسما يتخلص به من الدخلاء دون قتل أو دماء، خاصة مع تدفق الكثير من الحمقى مؤخرا إلى كهفه العزيز.

ظل حمزة على نفس وضعه منذ تركوه ملقى على الأرض، لم يكن عاجزا عن الحركة فجراحه لم تكن تؤلمه، لكنه ظل يتأمل سقف الكهف وهو يرى أمام عينيه لقطات غريبة لعراك آخر لكنه مختلف كل الاختلاف فأنداده هناك كانوا مجرد أطفال، ثم رأى طفلة تشبه فتاته الجميلة تماما تنظر إليه بانبهار وقبل أن يتكلم معها يأتيه صوت غريب شعر أنه مألوف له جدا يصرخ به

-حمزة إياك أن تلعب مع هذه الفتاة مرة أخرى!!.

صداع شديد اجتاح رأسه وهو يشعر بالعجز عن فهم ما يحدث له أو ما

يحدث من حوله فكل شيء غامض مبهم، لكن يظل الشيء الوحيد الذي يفهمه جيداً أن فتاته الصغيرة تحتاجه بشدة، لذلك اعتدل بسرعة وهو يستعد للذهاب للعمل وهو يعد خطته في رأسه.

بعد مدة قصيرة حول مجرى النهر الذي يشق الكهف كان حمزة جالساً في مكانه المعتاد ينخل الذهب من طمي النهر ويتجاهل زملاءه وهم يتهايمسون من حوله حتى تجرأ أحدهم لينحنى بقربه هامساً:

- حمزة ماذا كان يحدث في غرفتك أمس، ومن تلك الفتاة التي كانت تصرخ؟!

رفع حمزة رأسه ينظر من حوله ليجد عيون الحرس جميعاً تتجه إليه فنظر إلى زميله نظرة تهديد دون رد، ثم تجاهله تماماً وقد أصبح على يقين أن عيون الحراس لم تفارقه للحظة، فأخذ العزم في قرارة نفسه على تأجيل ما كان ينوي فعله حتى تهدأ العيون من حوله.

كانت ربا تبكي وهي في أحضان ضحى التي بادرتها بالسؤال بعد أن أحست أنها قد هدأت قليلاً:

- وماذا ستفعلين الآن يا صغيرتي.

لتعود ربا للبكاء وتجيّب بكلمات متقطعة من وسط شهقاتها:

- لا أعلم ليس لي أحد يساعدني ولا أعرف أين أبحث، حتى الكاهن

الذي أرشدوني إليه لم يأت، كل الكون تكاتف علي وعلى طفلي اليتيمة المسكينة.

وقفت ضحى وقد أحست بمسؤوليتها عن هذه الفتاة الضائعة فجاهدت تدفع عنها ضعفها لتبدو قوية وهي تجذب معها ربا قائلة:

- يا إلهي لا أعلم ماذا دهانا لنكون بهذا الغباء ونبحث عن كاهن مخدع ليعيد لنا أحبابنا، هيا حبيتي سنبدأ معا البحث من جديد وأنا على يقين أن قلبينا سيرشدانا إلى الطريق، هيا نعود الآن للبيت وغدا نخرج للبحث معا!

نظرت لها ربا بضياحٍ سال من غسل عينيها لتقول:

- وإلى أين أذهب أنا؟!

انتفض قلب ضحى ومشاعر الأمومة تجتاحها لتقول:

- أليس لك مكان تعيشين فيه حبيبتى؟!

رمى الحزن ظلاله على ملامح ربا وهي ترد:

-أنا لا أريد العودة هناك، كل من في القرية يكرهني يقولون أنني جلبت الشؤم لمن حولي منذ عملت في القصر، إنهم على حق يا سيدتي، هل تعلمين لقد ماتت أمي وزوجي وهاهي طفلي لا أعرف عنها شيئاً!!

ردت ضحى وهي تجذبها وراءها من يدها وتبدأ بالتحرك:

- يا إلهي تعالي معي إذا يا فتاتي، أنا أعيش مع أم زوجي الغائب وحدنا
وقد تأخرت على العجوز بما فيه الكفاية.

استجابت ربا لها وهي ترمي توجسها جانبا وقد قررت أن تتبع قلبها
وحسب.

خرج ساري من شروده على صوت فتح الباب ليجد الحارس يحمل
طفلة صغيرة على كتفه وصراخها يملأ المكان، ثم تفاجأ به يضع
الطفلة أرضا في أحد أركان الكهف ثم يتجه إليه ليتكلم بغلظة

- عليك أن تجعل هذه الصغيرة المزعجة تصمت أيها العجوز وإلا
سيعاقبك الزعيم، هل تفهم؟!

نظر إليه ساري بتعجب ليقول:

-لا، لا أفهم يا هذا؟!

مما جعل الحارس يدفعه بشدة حتى كاد يسقط بجانب الفتاة ليعتدل
بسرعة، وجسده القوي يساعده رغم سنه الكبيرة، فيدفع الحارس
ويكاد يشتبك معه في عراك لولا أن صوت الصغيرة علا وهي تصرخ

-أريد أمي، أريد أمي!!

فتراجع بصمت ينظر إلى الحارس الذي ابتعد عنه وخرج مغلقا الباب

من خلفه.

لم يعرف هل يجب عليه أن يقترب من الفتاة أم يبتعد فبقي مكانه عدة دقائق وبكاء الفتاة لم يتوقف ليقول لها

-لا تخافي صغيرتي الجميلة، سأعيدك إلى أمك فقط إهدئي كي
تساعديني في الخروج من هنا!

رفعت الفتاة رأسها تنظر إليه وقد خفت حدة بكائها قليلا وإن لم يتوقف
لتقول بوضوح أكثر هذه المرة:

-أريد أمي!

كانت عيناها العسليتان تحمل رجاء وخوفا إهتز له قلب ساري ليعدها
بصدق:

-سأعيدك إليها، لكن عليك أولاً أن تخبريني كيف وصلت إلى هنا؟!

لم تجبه الفتاة بل ظلت تنظر إليه وبكاؤها يخفت شيئاً فشيئاً لكنها
ظلت متوقعة على نفسها في ركن الكهف، فقرر أن يجلس هو الآخر
وقد علم أن الفتاة لن تتكلم الآن أو ربما هي لا تعلم شيئاً كما لا يعلم
هو، تلفت من حوله ينظر في أركان الكهف المعتم يبحث عن قبس من
نور حياته يهديه الطريق ويرد إليه بعضاً من روحه.

«أحتاج وجهك كي أرى ظلي..»

وأعرف أنّ شمساً ما هنا وهناك غرب...

إنّ الوصول إلى الجهات بغير حد الحب صعب»

دخلت ضحى البيت مسرعة وهي تُعدّ الكلمات في رأسها لتعتذر لجارتها وقد تأخرت كثيراً عن الموعد الذي كانت قد أخبرتها بأنها ستعود به، ما أن فتحت الباب حتى اتجهت إلى غرفة أم ساري لتجد جارتها تتحدث مع أم ساري قائلة:

- لا تقلقي يا خالة، ستأتي قريباً وربما يأتي معها الفرج.

دخلت عليهما ضحى قائلة وهي تحاول أن تداري خيبتها عن أم ساري:
- لقد عدت يا أمي لا تقلقي.

التفتت العجوز بسرعة والقلق والترقب قد بلغ مداه منها لتقول:

- عدت يا ابنتي وماذا فعلت؟! هل هو بخير؟! هل عرفت شيئاً عن مكانه؟!

كانت الدموع التي انهمرت من عيني ضحى هي جوابها فاندفعت أم ساري تبكي وهي تقول:

- يا إلهي أريد ولدي، أريد سندي، ضاع مني ولدي يا الله!!

انتبهت ضحى لصوت البكاء الذي علا من خارج البيت لتجد الفتاة

التي نسيتهما تقف هناك على الباب تبكي وقد مسها ألم الفقد من أم تكتوي روحها به كما تفعل هي، فأسرعت ضحى إليها تدخلها إلى الحجرة وهي تقول:

- انظري يا أمي وجدت هذه الفتاة وقد فقدت ابنتها الصغيرة وقد جاءت معي لنساعد بعضنا ونبدأ من الغد في البحث معا.

نظرت أم ساري لتجد فتاة قد لنها الحزن في كل تفاصيلها لكنه فشل في أن يخفي جمالها الفريد لتقول بذهول:

-تبارك الرحمن يا ابنتي، أنت أم لطفلة صغيرة وأنت بهذا العمر أين زوجك يا فتاة لماذا لم يبحث معك؟!

ردت عنها ضحى وهي تقربها منها وتحتويها بحنانها:

- زوجها توفى عنها يا أمي، إنها وحيدة مثلنا.

تغيرت نظرات أم ساري وفكرة واحدة تطغى على ذهنها لا بد أن تجد ابنها بسرعة ثم تزوجه من هذه الفاتنة!!

الفصل الثامن

ظل ساري في مكانه يتأمل الصغيرة التي مازالت لم تتكلم، لكن بكاءها تحول لتهنئات خفيفة ليجدها تقول له فجأة:

- أريد أمي، وأريد حمزة.

اقترب منها وقد انشردت نفسه لسماع صوتها الطفولي خاليا من البكاء::

-ومن هو حمزة يا صغيرتي، أخبريني حتى أستطيع أن أساعدك.

صمتت وكورت شفيتها في حزن مما أنبأه بنوبة بكاء جديدة فأسرع يقترب منها بهدوء قائلاً:

- انتظري لا تبكي أنا سأحكي لك قصة عن جدك العجوز ساري ثم تحكين أنت لي قصة عنك وتخبريني من هو حمزة.

ثم رفع يده وقربها إليها وهو يقول:

- اتفقنا؟!

نظرت الفتاة إلى كفه الممدودة لها، ثم بحذر مدت كفها الصغيرة لتلتقي بكف ساري يحتويها برفق ويبتسم وقد نجح في تجاوز بعض خوفها، ثم يمد يده الأخرى إلى شعرها الحريري المشعث يرتبه برفق

ويمسح عليه، لترفع الفتاة عينيها إليه تستجدي الأمان فيمنحها بنظرة
عينية فيضا منه وقد عزم أن يحميها ويردها إلى أمها سالمة.
للحظات ظل على وضعه وكأنه هو من يستمد منها القوة والأمان وليس
العكس، ثم ترك كفها لكنه ظل قريبا منها ليبدأ حكايته لها قائلاً:

-كان فيما كان يا صغيرتي من سائف الأزمان حطاب قوي، كان يذهب
إلى الغاية كل يوم فيجمع الحطب، ثم يعود به إلى السوق ليبيعه بلا تعب،
وفي يوم من الأيام، بعد أن باع الحطب وانهى عمله بالكمال والتمام،
وبينما هو يسير عائداً إلى بيته رأى فتاة جميلة حوراء فاتنة العينين، ما
أن نظر إليها لم يعد يرى شيئاً مما حوله سوى عينيها الفاتنتين، كانت
تجلس في زاوية من السوق المشمس، وأمامها سلة بها الكثير والكثير
من المشمش ...

صمت ساري للحظة فوجد الصغيرة تعتلد في جلستها وقد امتلأت
ملامحها بالترقب، فسرت في روحه نشوة انتزاعها من حزنها ليراها
تقترب منه أكثر وهي تسأله

-ثم ماذا حدث بعد ذلك؟!

انقبض قلب ربا وهي ترى نظرات العجوز الفاحصة والتي تحولت
لانبهار شديد صاحبه أسئلة كثيرة عن عمرها وعملها دون أن تهتم

بحالة الضياع التي كانت فيها أو حتى بسؤالها عن فقدانها لابنتها ،
لم تكن هذه النظرات المنبهرة جديدة عليها فقد اعتادت عليها منذ
شبت وفتح جمالها لكنها كانت وما زالت تتوجس منها خيفة.

لقد تهورت واتبعت قلبها وجاءت مع المرأة التي تدعى ضحى لأنها
ولأول مرة منذ زمن بعيد ينظر إليها أحد بنظرة أمومة وحنان خالصة
مست قلبها ذلك الذي تيبست جنابته عطشا لحب ينتشلها من جحيم
وحدثها.

لكن توترها بدأ يزداد مع إلحاح العجوز في أسئلتها فرفعت رأسها تبحث
عن ضحى لتصددها نظرة الإنكسار التي رأتها في عينيها، ساعتها
ظهرت لها الصورة كاملة وقد فهمت ما تسعى العجوز له، تعجبت كيف
كانت ضحى قلقة على العجوز منذ بعض الوقت وهاهي العجوز ترد لها
خوفها وقلتها بكسر قلبها.

ابتسمت بسخرية مريرة وهي ترى لعنة شؤمها تطال ضحى هذه
الغريبة التي فتحت لها قلبها وبيتها ومدت لها يد العون، لتعود بنظرتها
إلى العجوز قائلة:

- لا تشغلي بالك بي يا خالة ما أنا إلا نذير شؤم يستأصل الخير
والأرواح، كل من أحبه يفارقني، فقط لعنتي هي التي لم تفارقتني قط.
شهقت العجوز وهي تضرب صدرها بقوتها الواهنة بينما غامت عينا

ضحى بنظرات حزن وخوف حقيقي، كانت ربا على يقين أنه لها لا منها
فاقتربت منها ربا بهدوء لتقول:

- أعذريني خالتي ضحى لا بد أن أرحل سأعود إلى قريتي، وسأذهب
إلى القصر لأبحث من جديد هناك، ولو عرفت شيئاً سأتي إليك
لأخبرك، وأنت كذلك سأنتظر منك خبراً لو علمت شيئاً، وأوصيك
بابنتي الصغيرة فرح إذا وجدتها قبلي اعطني بها جيداً من أجلي.

مع آخر كلماتها لم تستطع حبس دموعها فانهمرت سيلاً مالحاً يحضر
أخاديد الحزن على وجنتها لتجذبها ضحى إلى حضنها الحاني
فتستسلم لدقائق قبل أن تبتعد ببطء وتخرج من البيت إلى قريتها وهي
تتجنب الالتفات خلفها.

اختار حمزة أكثر الرجال ثرثرة ثم اقترب منه بطريقة غير ملفتة حتى
أصبح بقربه ليبدأ حديثاً معه قائلاً:

- مرحباً يا رفيقي، كيف حالك وما آخر أخبارك.

انتبه له الرجل ليرد بسرعه:

- حمزة كيف حالك يا رجل، أنا بخير كيف حالك أنت، وما قصة
الفتاة التي وجدوها عندك؟ هل فعلاً كان هناك فتاة؟! سمعت أنهم
أخذوها للزعيم، وقد أمرهم أن يحبسوها في آخر الكهف كما يفعلون

مع العجائز والدخلاء، هل هذا صحيح؟! سمعت أيضا أنها لم تكف عن الصراخ منذ ذلك الوقت.

كان حمزة يستمع لثرثرة الرجل بدون رد لعله يصل إلى أي معلومة قد تفيده أو ترشده إلى مكان فتاته الصغيرة لكن الرجل لم يزد معلومة واحدة عما يعرفه، فقرر حمزة أن يرمي له طرفا من الكلام قائلًا:

- أي فتاة يارجل؟ ما كل هذا الهراء؟ هل تصدق شيئًا كهذا؟ أنا لا أصدق أن أحدا ما قد يحبس هنا، فنحن نعيش هنا في أمان ونعمل بجهد ولو كان هناك من يحبس لرأينا المكان أو سمعنا عنه.

رد الرجل سريعًا:

- أحقق أنت يا حمزة ألم تر الحرس من قبل وهو يسحبون ذلك العجوز، لقد سمعت أن المكان الذي يحبسون فيه الدخلاء في آخر الجانب الشرقي من الكهف وأن روحا شريرة تحمي المكان هناك، ولكننا لن نتأكد أبدا فلا أظن أحدا قد يجازف بالذهاب هناك.

التقط حمزة الكلمات ليقول:

- صدقت يا رجل، لا شيء قد يستحق أن يلقي أحد نفسه في الهلاك، نحن نعيش هنا نعمل عملا جيدا ونأكل طعاما رائعا، لا أظن شيئًا يساوي خسارة هذا الأمان والاستقرار.

جلس طاهر في قصره متحفزا بعد أن أرسل حرسه ليجلبوا له تلك المرأة الشابة التي تدعى ربا والتي تعمل عنده لعله يعرف كيف دخلت ابنتها الصغيرة إلى الكهف وليرى ماذا يفعل بها، كان على كرسي والده الأثير عندما استأذن عليه الحرس ليدخلوا والفتاة تتوسطهم بجزع لتهرع إليه قائلة:

- سيدي أين هي فرح ابنتي، أخبرني رجالك أنك تريدني، هل وجدت ابنتي؟! هل تعرف مكانها يا سيدي؟!

أشار طاهر للحرس كي يخرجوا من المكان، ثم اقترب منها وهو ينظر إليها بتفحص لعله يتأكد هل هي فعلا لا تعرف شيئا أو أنها تخدعه، ظل صامتا لبعض الوقت وهو ينظر إليها لتتكلم هي بحذر وقد بدأ الخوف يملكها:

- سيدي لماذا تنظر إلي هكذا؟! هل أخطأت بشيء أو أخطأت ابنتي؟! ظلت نظراته المتفحصة تراقبها ليقول بعد لحظات:

- هل تذكرين كم مرة أخبرتك ألا تجلبي فتاتك إلى القصر؟! ألم أنبهك أنني لا أحب إزعاج الأطفال الحمقى؟!

لم تستطع المرأة كبت دموعها التي انهمرت بلا توقف لتقول:

- أعرف سيدي لكن العجوز التي كانت ترعاها ماتت، ولم يقبل أحد أن يهتم بها، لقد كنت أحبسها عن الحركة بعيدا عني، أقسم أنها لم تفعل شيئا ولم تتحرك بدوني في أي مكان سوى تلك المرة التي اختفت

فيها، كانت معي وفي لحظة خرجت للحديقة وبحثت عنها فلم أجدها،
أتوسل إليك سيدي أعدها إلي ولن تراها مرة أخرى..أتوسل إليك لا
تؤذها سيدي..

انقطعت كلماتها وقد علا صوتها بالبكاء عندما أقترب منها طاهر
والشرر يتطاير من عينيه:

- ودخلت الحديقة أيضا أيتها الحمقاء! أنت حقاً قد تعديت كل الحدود
التي وضعتها لك ترى ما الذي يمنعني عنك الآن، الخوف حولك من كل
مكان، لا أحد سيتجرأ للبحث عنك، فلا يهزم الخوف إلا الحب، ولا
أظن أحداً يجبك هنا ليهتم بك ويبحث عنك، أعتقد أن التخلص منك
أسهل مما كنت أعتقد.

كانت المرأة الشابة تتراجع بخوف وهي تنظر إلى طاهر وتبكي وتتوسل
إليه قائلة:

- لتفعل بي ما تشاء يا سيدي، لكن لا تؤذ ابنتي وأتركني أراها مرة
واحدة أرجوك.

عاد طاهر إلى كرسيه ليجلس مسترخياً وقد أمتص خوفها كل غضبه
وهو يراها تكرر كلماتها بلا توقف حتى قاربت الهديان، فأضحت
الكلمات تخرج منها مرتعشة مقطعة، لكنها جعلت روحه الخبيثة تبتهج
بانتهاء.

الفصل التاسع

تذكرت ضحى كيف راقبت الفتاة وهي تغادر، لا تعرف لمَ شعرت أن قلبها قد انقبض وودت لو تمنعها من المغادرة، وكأن شيئاً ما يخبرها بخطر قادم، لكنها لم تكن تستطيع شيئاً فظلت مكانها تقلب الأمور كلها في عقلها لعلها تصل لشيء يقودها إلى زوجها ولتلك الفتاة الصغيرة التي فطرت قلب أمها، كانت تجلس بسكون في ركن الغرفة مع أم ساري سارحة بأفكارها عندما فاجأتها العجوز وهي تصرخ عليها قائلة بكلمات غاضبة:

- «كيف أمكنك إحضار فتاة لا تعرفينها إلى هذا البيت، يبدو أن اختفاء ساري أثر على عقلك يا امرأة»

تتهدت ضحى بعمق وألبست صوتها بعض البرود لتخفي وجع روحها لتقول بهدوء يناقض النار التي تشتعل بجوفها:

- «هل تعلمين خالتي أنا راعيت شعورك بالعجز منذ اختفى ابنك الذي لا يبدو أنك تتذكرين أنه زوجي، وتحملت كل اتهاماتك لي بالأنانية وصمت وأنت تخبريني في كل مرة أنك لا بد أن تزوجيه عند عودته، صمت لأنني أعرف كيف يتألم قلب الأم حتى إن كنت عاقراً كما يحلو لك أن تتعطيني فأنا أعرف صدقيني، وأعرف أنك تتمنين لو أنني

جفتوك وبادلتك معاملتك بمثلها لكي تسهل مهمتك التي تخططين لها، هل تعتقدين أنني لا أعلم أنك كلما قابلت أحدا كلفته لبحث عن عروس مناسبة لزوجي الغائب والذي لا تعرفين متى يعود أصلا، لكن تأكدي أن كل ما تفعلينه لا يعينني ولن يغير معاملتي لك، أنا أحب ساري، وسأتحمل كل شيء في سبيل عودته سالما حتى لو فديته بروحي، لكنني حقا اكتفيت منك خالتي، والآن عليك أن ترتاحي وسأريحك مني أيضا، وسأذهب لأبحث عن زوجي ولن أعود إلا وهو معي، ولا تقلقي ستأتي إحدى جارائنا لتعتني بك حتى أعود »

كانت ضحى تستعد مغادرة الغرفة عندما وجدت العجوز تجذبها إليها وقد تجمعت بعض الدموع في عينيها لتقول بهلع:

- «لا تركيني يا ابنتي، لم أقصد أن أؤذيك، أنا أم فقط، أم مكلومة بابنها تكاد تجن لتراه مرة أخرى، لا تعامليني هكذا بل عامليني بقلبك الطيب، أنت تعرفين أنه لم يعد لي أحد سواك »

دفعتها ضحى برفق لتربت على ظهرها وتقول:- «ربما أنا عاقر لكنني أعرف شعور الأم أيضا، ما تفعلينه أنت أنانية وحسب، ليس معنى أن تكوني أما أن يذهب البقية سوى أولادك للجحيم، لكن لا تجزعي أنا حقا أحتاج أن أبحث عن ساري، سأذهب الآن لكنني سأعود وهو معي، أشعر أنني سأنجز هذه المرة اتركيني أرحل وادعي لي بالتوفيق من قلبك بصدق لمرة واحدة إن لم يكن من أجلي فمن أجل ابنك يا أمي »

ثم اعتدلت تسوي من ثوبها وحجابها وهي تحاول أن تتجاهل بكاء العجوز من ورائها وقلبا يتقطع حزنا عليها لكنها كانت قد عزمت أن تخرج في رحلة البحث عن زوجها، وعليها أولا أن تطمئن على تلك الفتاة المسكينة ربا.

كانت نظرة الهلع في عيني الفتاة الصغيرة لا تفارق عقل حمزة أبدا، وكان قلبه يتقبض في كل مرة يتذكر نداءها له، عندما انتهى من رسم خطته للبحث عنها بدأ يتخيل بنشوة وزهو نظرة الفخر والإعجاب في عينيها وهو يحررها من هنا ويعيدها إلى أمها.

لم يكن يملك أي فكرة عن مكان أمها وكيف يذهب بها إليها فكل ما يذكره من حياته يبدأ هنا في هذا الكهف وكان يظن دوما أنه سينتهي هنا أيضا، لكن الأمور يبدو أنها ستختلف منذ الآن.

هز رأسه يحاول ترتيب أفكاره، كان قد قسم خطته لقسمين عليه أولا أن يبدأ بالبحث عن فتاته ليعيدها هنا إلى حجرته، ويخفيها جيدا هذه المرة، ثم بعد ذلك يحاول أن يفهم منها مكان أمها ليقرر ماذا سيفعل بعد ذلك في الخطوة التالية.

انتظر لبعض الوقت حتى يتأكد أن جميع زملائه قد لزموا حجراتهم، أصغى للسكون من حوله فعرف أنهم قد خلدوا للنوم وأن موعد مهمته قد حان، اتجه إلى قطعة قماش كان قد جهزها من قبل فتلثم بها، ثم

أخرج عصا غليظة كان قد وضعها أسفل فراشه فأخفاها في طيات ثوبه، وخرج من حجرته بهدوء، وأغلق الباب من خلفه متجها إلى الجانب الشرقي من الكهف وقد عزم أن يصل إلى فتاته مهما كلفه الأمر.

سار بهدوء وقد بدأ المكان يزداد ظلما كلما اقترب من الناحية الشرقية، لم تشكل الظلمة عقبة له فكل من يعيش هنا قد اعتاد التعامل مع الظلمة كأحدى المسلمات في حياتهم اليومية.

للحظة كان شديد العجب من أنه لم يصادف أي حراسة على المكان، ثم ابتسم بينه وبين نفسه بسخرية ولم العجب لأبد أنهم عرفوا بل وتأكدوا أن لا أحد سيحاول اقتحام المكان، هو نفسه لم يكن ليفكر في الأمر لولا جنية صغيرة بعيون عسلية فاتنة وشعر مشعث لا يعرف عنها شيئا سوى أنها استغاثت به، وها هي تحيل حياته الهادئة إلى مغامرة لا يعرف أبدا أين ستنتهي به.

بدأ يقترب من مكان وجد به أبواب كثيرة، توقع أنها الزنازين التي يضعون بها المتطفلين كما يسميهم الحراس، عرف أن عليه أن يبحث عن فتاته برفق دون أن يكشف نفسه لأحد، فكر للحظة ثم أخرج عصاه وبدأ يضرب الأبواب التي يمر بها وينتظر مصغيا للصوت من داخلها ترقبا لسماع فتاته حتى يعلم خلف أي باب هي.

مر الوقت ثقيلًا على قلبه وقد ضرب أبوابا عديدة وسمع أصواتا مختلفة

وبدأ اليأس يتسلل إلى روحه خاصة أن بعض الأبواب لم يجد من خلفها رداً، فلم يعد يستطيع أن يجزم بجذوى ما يفعله لكنه أجبر نفسه على إكمال ما بدأه إلى النهاية.

كان يضرب واحداً من الأبواب عندما سمع صوتاً عجوزاً أحس أنه قد سمعه من قبل يقول بحدة:

- « من هناك؟! »

لم يتجرأ حمزة على الرد، لكنه ضرب الباب مرة أخرى ليأتيه نفس الصوت قائلاً:

- « أيها الحمقى ماذا تفعلون؟!، أنتم تفزعون الصغيرة بهذه الطرقات التي لا تتوقف »

أقترب حمزة من الباب بلهفة ليقول للعجوز من خلف الباب بحذر:

- « أية صغيرة تقصد؟! »

لا يعرف كيف استطاع قلبه أن يبقى داخل صدره دون أن يقفز فرحاً وهو يسمع صوت جنيته الصغيرة تصرخ وتضرب الباب من الداخل بقوة:

- « إنه حمزة، إنه حمزة جاء ينقذني كما وعدني، كنت أعلم أنه سيأتي، نعم كنت أعلم، لقد وعدني »

وصلت ضحى إلى أطراف القرية الذي أخبرتها ربا أنها تعيش بها، كانت قرية صغيرة متجاورة المنازل، قريبة جدا من الغابة، على مشارفها قصر كبير كئيب الطلة بلون رمادي قاتم لم تتجح الأشجار الخضراء الكثيفة من حوله في منحه بعض الحياة، تجاوزت ذلك القصر وهي تتكمش رهبة منه لتتبع الطريق الممهّد الوحيد الذي وجدته حتى صارت في ساحة صغيرة تحيط بها منازل القرية، ويتوسطها بئر يلهو الأولاد من حولها، وقفت رغما عنها منجذبة لمنظر الأطفال وهم يلعبون بسعادة، لا يباليون بما تفعله الحياة من حولهم، ظلت مكانها بشرود حتى انتبهت إلى صوت امرأة من خلفها:

- من أنت سيدتي وماذا تريدين؟!

التفت لتجد امرأة في مثل عمرها بوجه محبب مكتنز كجسدها، لكنها كانت عدائية جدا، وكأنها أمسكت مجرما خطيرا، مما جعل ضحى تتراجع للخلف خطوتين وتحاول رسم ابتسامة مصطنعة تمتص بها غضب المرأة وقبل أن تنطق وجدت المرأة تعيد السؤال بعدوانية أكثر × سألتك عدة مرات من أنت سيدتي، وإن لم تجيبي فورا سأصرخ مستجدة، لن أسمح لأحد أن يمس أطفالي مرة أخرى!!

ردت ضحى بسرعة لعلها تتدارك الأمر:

×جئت من قرية قريبة منكم، أبحث عن فتاة تسمى ربا، وصدقيني

سيدتي لم أكن لأؤذي الأطفال أبدا.

نظرت إليها المرأة بتفحص قائلة

- وماذا تريد من تلك المشؤومة التي جلبت البؤس لقريتنا.

تغيرت ملامح ضحى حزنا على الفتاة المنبوذة:

- لماذا تقولين ذلك سيدتي؟ ماذا فعلت ربا؟ ماذا فعلت لتنال هذه التسمية البشعة؟ انا متأكدة أنها ليست إلا امرأة وحيدة بائسة فقدت الجميع من حولها حتى ابنتها الصغيرة.

ردت المرأة وقد انحسرت بعض العدائية منها، وتبدلت حزنا صادقا لمس قلب ضحى

- لولا أنني لا أعرف حرقه قلب الأم على ولدها لكنت قلت إنها تستحق، لكن ذلك الألم لا يستحقه بشر على وجهه الأرض.

كانت نظرات ضحى تتابع دمعة تصارع للنزول من عين المرأة لتتكلم ضحى وقد أخذ قلبها ينقبض حزنا:

- هل فقدت أحد أبنائك أنت أيضا سيدتي؟!

جلست المرأة على سور منخفض بجوار البئر وتهدت بعمق قبل أن تقول:

الحكاية طويلة جدا، اذهبي أنت من هنا لا شيء يعنيك في هذا المكان

فربا غادرت إلى القصر حسب ما أعرف كان رجال القصر هنا ينتظرونها وغادرت معهم حالما وصلت القرية.

كانت ضحى تكاد ترتعش فعليًا وهي تفكر أنها ربما تصل لشيء لو فهمت ما يجري هنا، لتقول مهادنة وهي تجلس بجوار المرأة:

- أنا فقدت زوجي اختفى منذ فترة بعدما خرج للغابة، ثم قابلت ربا وهي تبحث عن ابنتها، هلا تخبريني عما يحدث هنا علي أصل لشيء يدلني على مكان زوجي.

ردت المرأة بشرود:

- فقدت زوجك هذا غريب علينا فكل من نفقدهم هنا أطفال، فمنذ عدة سنوات اختفى عدد من أطفال القرية، بحثنا في كل مكان من حولنا وفي القرى التي تجاورنا ولم نجد أثرًا لأحد منهم، لم نياس وظل الرجال يخرجون للغابة كل فترة باحثين عنهم من جديد، حتى وجدوهم بعد مرور ثلاث سنوات في الغابة قد تجمعوا في مكان واحد يغطون في نوم عميق، حين عاد الأطفال إلى القرية ظلوا لأيام في حالة غريبة من الضياع، لكن لا أحد فهم مما يقولون شيئًا، فادعى الناس أن لا شيء قد حدث، وتناسوا الأمر، وقد بدأ الصبية يعودون تدريجًا لطبيعتهم حتى حدث الأمر مرة أخرى.

شهقت ضحى بقوة وهي تقول:

- أي أمر هل اختفوا مرة أخرى؟!

ردت المرأة بضياح غريب:

- من اختفى لم يكن نفس الأطفال بل مجموعة جديدة من القرية...

صمتت المرأة وانقطع صوتها للحظات قبل أن تكمل وقد استسلمت
للبياء:

- وأخذوا معهم ولدي حمزة!!

الفصل العاشر

كان قلب حمزة يتقاذف في صدره فرحا بعثوره على فتاته، ليقول بجزل
وصوته يضج بالسعادة:

-لقد وصلت إليك يا صغيرتي، وسأعيدك إلى أمك لا تقلقي.

وضع أذنه على الباب ليسمع صوت الصغيرة وهي تناديه:

-إذا هيا أخرجني حمزة، أعدني إلى أمي هيا!

للحظة وقف أمام الباب ينظر للقفل الضخم بعجز ويفكر ماذا من
الممكن أن يفعل، بينما كان ساري صامتا يتابع ما يحدث، ويتأمل كيف
نبضت الحياة في الصغيرة بسماعها لصوت الشاب خارج الزنزانة
فينادي عليه قائلاً:

-هل معك شيء تفتح به الباب حمزة؟!

ليسمع صوت حمزة حائراً تأثها:

-أخبرني ماذا أحتاج لفتحه سيدي، فكل ما أحمله عصا غليظة لكنها

لن تؤثر به شيئاً على ما أظن!!

رد عليه ساري بهدوء وهو يلتقط توتره:

-أظنك تحتاج لشيء قاس وحاد فقد لاحظت أن الأفضال قوية وضخمة.

زاد إحساس حمزة بالعجز وهو يقول:

«ومن أين لي بهذا سيدي؟ حتى الحراس هنا لا يملكون أسلحة بل عصيًا غليظة؟!»

صمت ساري مفكرا حتى خطرت له فكرة فقال بصوت حاول ألا يجعله مرتقعا:

- انتظر حمزة خطرت لي فكرة، لما لا تختبئ حتى مجيء الحراس بالطعام أظنهم اثنين معا، ربما أكون قد صرت عجوزا لكنني قوي ونستطيع أن نتغلب عليهم معا، كما أن المفاجأة ستكون عوننا لنا، ما رأيك حمزة هل تستطيع أن تجازف معي، أو أن هناك ما قد يمنعك؟!

أخذت حياة حمزة تمر أمامه بسرعة يكاد يجزم أن لا شيء يستحق، عمل ثم طعام ونوم لا شيء يختلف أبدا، ثم مرت ومضة غريبة لحضن من امرأة محبوبة وصوت مألوف لقلبه جدا « أحبك يا حمزة ». كان يصارع عقله لعله يتذكر أي شيء آخر، لكنه لم يستطع حتى انتبه لصوت الصغيرة تبكي من الداخل وتصرخ:

- أنا أحبك يا حمزة، لماذا لا ترد على الجد، أنت ستنقذني، أليس كذلك؟!»

رد قائلا بصوت واثق أملا أن يهدأ به جنيته الصغيرة:

- سأنقذك بلا شك يا صغيرتي، إياك أن تخافي وسأعيدك إلى أمك

أيضا كما وعدتك.

ثم أكمل كلامه وهو يوجهه لساري:

- حسنا سيدي أظنها فكرة جيدة سأبحث عن مخبأ قريب من هنا
أختفي به حتى موعد الطعام، هل هو قريب هذا الموعد سيدي؟!
حاول ساري أن يخمن الوقت، لكنه عجز وقد انشغل في الفترة الأخيرة
بالفتاة ليرد بحيرة:

× أنا لا أعرف تحديدا لكني أظن أنه اقترب، كن قريبا ولا تبدأ بالهجوم
حتى يفتحوا الباب حتى أكون معك يا بني، هيا اختبئ قبل أن يأتي
أحدهم.

رد حمزة بعزم وهو يبتعد باحثا عن مكان مناسب للاختفاء

- حسنا سيدي سأذهب وأنت انتبه للفتاة جيدا، في أمان الله يا
صغيرتي.

نظر طاهر إلى الفتاة بهدوء ليقول:

- هيا اذهبي إلى عمك الآن حتى أفكر بالأمر.

فانطلقت الفتاة مسرعة إلى مطبخ القصر وهي فيما يبدو لا تصدق
أنها قد نجت، ليسند ظهره إلى الكرسي مغلقا عينيه وهو يتذكر الوصية

الأهم من والده

- " لا تجعل لك شركاء في أمورك يا طاهر»

بدأت القصة التي يحفظها عن ظهر قلب تعاد على مسامعه من جديد
« كنا مجموعة معا يا ولدي، وانفتح لنا الكهف، في البداية لم نستطع
التحرك من حالة الذهول مما وجدناه من الذهب فقد كان كثيرا جدًا
بأشكال مختلفة جميعها عبارة عن صخور ذهبية، وبدأنا نجمع منه
كميات كبيرة قبل أن نفكر كيف سنعود، ثم بدأ اثنان منا بالشجار على
حجر ضخم، وزاد الأمر حتى أصبح الجميع يتشاجرون معا، أخذت أنا
ركنا بعيدا فقد كان من الواضح أنهم قد يقتلون بعضهم البعض خاصة
بعد أن أخرجوا خناجرهم، ابتعدت حتى أرى لمن تحسم الأمور، ثم
بدأت الطعنات وما أن سألت الدماء ولامست أرض الكهف حتى هاجت
الدنيا كما لم أر في حياتي من قبل، كانت الأرض تتحرك بنا كأنها
تتفضنا من فوقها، وظللنا نتخبط فوق الصخور ونصرخ خوفا وألما،
ثم سمعنا صوتا غريبا، كان كالصدى يصرخ بنا:

- دماء في كهف الباولونيا تعني الهلاك

- لا أعرف كيف وجدت نفسي ملقى على الأرض في الغابة، وجدت
بجانبي أصدقائي لكنهم كانوا موتى لم ينبج سواي، بحثت عن شجرة
الباولونيا فلم أجدها وعرفت أن مدخل الكهف قد تدمر، لكن إياك أن

تياًس فسينفتح الكهف لك يوماً وتذكر ساعتها أنني حذرتك من اثنتين:
شريك أو دم»

هَبَّ طاهر من مكانه سريعاً متجهاً إلى مطبخ قصره وقد عزم أن
يتخلص من تلك الفتاة فوراً.

ابتعدت ضحى عن القرية بحذر في اتجاه القصر بعد أن نجحت بعناء
شديد في تهدئة المرأة الباكية هناك، كانت تتمنى لو أنها قابلت أحد
الأطفال الذين عادوا بعد الاختطاف، لعلها تفهم منهم شيئاً لكنها لم
تملك الشجاعة لتطلب ذلك من تلك المرأة.

فاتجهت إلى القصر، قررت أن تدخل القصر خلسة حتى تستطلع الأمر
وحسب، لم تكن تعرف كيف تستطيع أن تدخل دون أن يراها أحد لذلك
ظلت تدور حول مدخل القصر بهدوء،

كان المدخل بلا حراسة وكأنه يتحدى أن يقترب منه أحد، لكن الباب
كان مغلقاً بقفل كبير، وقفت قرب الباب تتأمل المكان الذي بدا موحشاً
جداً بالداخل، حتى أحست ببعض الحركة فأسرعت تختبي خلف
شجرة قريبة، رأت بعض الحراس يدخلون إلى القصر يحملون الكثير
من صناديق الخضار والفاكهة وقد تركوا الباب وراءهم، لا تعرف كيف
واتتها الجرأة أن تدخل مسرعة إلى القصر حتى وصلت إلى مشارف

حديقة كبيرة بناحية من القصر فاخترت عند أول شجرة وجدت
هناك،

وقفت لفترة ليست بالقصيرة وهي تحاول التقاط أنفاسها التي ذهبت
تماما من شدة الخوف، وحالما بدأت تستعيد اتزانها أخذت تسير
بهدوء من شجرة لشجرة تتأملها وقد وجدت كل الأشجار متشابهة
بشكل ملفت جداً، لفت انتباهها صوت من داخل الحديقة قررت أن
تقترب منه بحذر لتستكشف الأمر، ظلت محافظة على هدوئها وهي
تقترب من مصدر الصوت ببطء من خلف الأشجار حتى وجدت رجلا
بعيون حادة، ونظرات شريرة جعلت قلبها ينبض خوفا وقد كادت
تجزم أن هذا الرجل المقيم هو صاحب القصر، كان الرجل يجر وراءه
جرابا كبيرا من الصوف لم تستطع أن تتبين ما يحتويه، وضعه ثم بدأ
بحفر حفرة كبيرة في الأرض، وشد الجراب ليلقي به في وسط الحفرة
لتكتم ضحى شهقتها بقوة بكلتا يديها وتفتح عينيها بهلع وهي تتبين
طرف ثوب ربا من داخل الجراب.

الفصل الحادي عشر

جلس ساري يتأمل الصغيرة وهي تتابع الباب بتركيز شديد، وتتكلم بحماس وتحكي له كيف هاجم الحراس حمزة من قبل قائلة بانبهار:

× ثم ضربهم حمزة كلهم وحده لكنهم أخذوني منه رغم ذلك، إنه قوي جداً يا جدي وسوف يعود أليس كذلك؟!

نظر إليها ساري بهدوء ليقول:

× نعم صغيرتي سيعود، ولكن اولا بما أن عقدة لسانك قد فكت فهلا أخبرتني عن اسمك.

ابتسمت الصغيرة لتقول له وعيناها تشع بسعادة:

× اسمي فرح، كانت أمي دائما تخبرني أنني فرحتها وشمس حياتها، حمزة سيعيدني إليها أليس كذلك.

ابتسم لفرحتها ثم جذبها برفق وأجلسها في حجره قائلاً:

× نعم سيعود من أجلك يا فرح، ويعيدك إلى أمك سالمة بإذن الله،

أكمل كلامه بتنهيدة عميقة يستجلب بها رياح الذكريات:

× هل تعرفين يا صغيرتي لقد جئت إلى هذا الكهف المظلم من مكان بعيد حيث هناك يا صغيرتي شمس جميلة تشرق كل صباح تنشر

الضياء ويعم الدفاء، تتلمس بشعاعها كل ما تطلع عليه فتزهر الأرواح
والحياة في القلوب والأزهار، وهناك شمسٌ بارعة الجمال لكنها لي
وحدى أجمل من كل شمس الدنيا، بعيدة جدا عني هي يا صغيرتي،
لكنها تشرق مع كل نبضة حب في صدري فتلهب العشق بقلبي، وتدفعني
نفسي، وتستكين الروح على أمل اللقاء.

ظلت الصغيرة تنظر إليه بصمت وهو يكاد يوقن أنها لم تفهم كلامه،
فتنهذ ينفذ ذكرياته ويركز مع الصغيرة لعله يفهم منها شيئاً قد يفيد
في عودتهم فتابع قائلاً:

× هل تعرفين كيف دخلت إلى هنا؟ كنت في الغابة ثم وجدت شجرة
جميلة وما أن ضربتها بفأسي حتى هاجت الريح وأخذتني إلى هذا
الكهف، كيف جئت أنت صغيرتي؟!

رفعت إليه فرح رأسها وقد رسم الخوف نظرتها ومررت بجسدها رعشة
لم تخف عليه فرفع يده يحركها على ظهرها بحنان يمدّها بالقوة لتقول
وهي تدس نفسها في حضنه:

× كنت مع أمي في القصر وكانت تعمل بينما أنا أجلس بجانبها كما
أمرتني ثم رأيت قطة دخلت إلى الحديقة دخلت وراءها ألعب معها،
وهناك رأيت ذلك الرجل الشرير كان يتكلم بكلمات غريبة ثم ضرب
شجرة وهاجت الريح مثل شجرتك وكنت أنا قريبة جدا فسقطت وراءه

هنا، ولا أذكر بعد ذلك إلا أنني استيقظت ووجدت حمزة وهو أخذني لغرفته وجلب لي الطعام الشهي.

تابع ساري كلام الصغيرة بتركيز شديد حتى انتهت وقد شعر بهدوئها ما أن ذكرت حمزة ليقول بحذر

×وهذا الشرير هل رأيتَه هنا في الكهف بعدها؟!

ردت الصغيرة وهي تتكلم مرة أخرى وتكاد تبكي خوفاً:

×نعم كان يجلس على كرسي كبير ورآني وقال كلاماً عن أمي لا أذكره كنت خائفة جداً وكنت أبكي بشدة، أخبرتني أمي يوماً أنه شرير جداً ولا يجب أن يدخل أحد حديقته لكن أنا لم أسمع كلامها، أريد أن أعود إليها وأعدك أن أسمع كلامها دائماً جدي.

رد ساري بحزم وهو مازال يحتويها ويحرك يده على ظهرها مهدئاً لها بينما الأفكار تتزاحم في عقله:

×أنا أعرف أنك لن تخالفِ كلام أمك ثانية، وسنعيدك إليها أنا وحمزة لا تقلقي صغيرتي، لا تقلقي أبداً.

جلس طاهر على حافة الحفرة التي حضرها بعد أن أسقط الجراب فيها ينظر إليه برهبة لم يستطع تجاوزها، ربما كل شيء يجوز في

سبيل هدفه، والغاية تبرر الوسيلة كما علل لنفسه دائماً، لكنها المرة الأولى التي يتجرأ فيها على القتل ويبدو أن نظرة الهلع في عيني الفتاة المسكينة وهو يخنقها ستظل تطارده لفترة طويلة، تنهد وهو ينفذ رأسه ويخبر نفسه أنه في النهاية مضطر لما فعل، لقد أخبره والده ذات يوم أنه أنجبه ليفتح الكهف مرة أخرى ويستخرج الذهب وهو لم يكن ليخيب أمل والده أبداً، فبعدما اكتشف والده أن دوامة الكهف التي تفتحها الشجرة هي دوامة زمنية تدور بالزمن لعشرين سنة في المستقبل، قرر أن يتزوج وينجب ليكون ولده سندا له عندما يصل للشجرة المنشودة، ومنذ نشأ وهو يرى كيف كان والده يجمع بذور الباولونيا ويزرعها في حديقة القصر وينتظرها بلهفة حتى تنمو ثم يضرب الجذع أملاً أن يصل إلى مدخل الكهف، وفي كل مرة يفشل والده فيها كان يسحبه معه ويلقنه القصة جيداً قائلاً:

«ضربة للجذع ستفتح الكهف يوماً يا ولدي، لن نياس سنزرع الأشجار حتى نصل يوماً للشجرة السحرية المنشودة التي تفتح دوامة الكهف، وربما سأكون عجوزاً جداً ساعتها، لكنك سندي وسنصل معا ونجمع الذهب ثم نعود يا طاهر»

شمت عينيه بنظرة زهو وهو يتخيل لو كان والده حياً لكان الآن فخوراً به، لقد وصل للكهف بل وسخر من يريحه ويستخرج له الذهب، وبالأكثر لقد استعان بذلك المشعوذ المجنون ليصنع له تعويذة تكسر

دوامة الزمن، وهامو يدخل إلى الكهف ويخرج بتعويذته دون أن تنال منه الدوامة ويحمل الذهب معه بلا عناء أو مشقة، أغمض عينيه ونظرة الفخر في عيني والده تلوح له فتمحو نظرة الفتاة الهلعة وتهون عليه ما فعله كله، بل وتتعش روحه التي انتكست للحظة جزعا بموت الفتاة فينفض عنه التراب ويخرج من الحفرة بعزم ليهيل التراب على جثة الفتاة غافلا عن تلك التي كانت ترتعش خوفا وحزنا خلف شجرة قريبة.

ظل حمزة مختبئاً بين الصخور متأهبا بكل ما فيه، حتى رأى الحارسين يسيران بهدوء وهما يتسامران ويحملان صندوقا كبيرا عرف أنه صندوق الطعام، أخذوا يفتحان غرفة غرفة ويدخلان الطعام، وأخذ الوقت يمر بطيئا جدا حتى اقتربا من حجرة فتاته والعجوز، ما إن فتحا الباب حتى بدأ يخرج بحذر من مخبئه متجها بهدوء إلى الغرفة، كان أحد الحارسين قد دخل إلى الغرفة بالطعام بينما الآخر يقف منتظرا بقرب الصندوق، وهو يحمل القفل الضخم في يده، اقترب حمزة منهما، ورفع عصاه الغليظة ليهوى بها على رأس الحارس الذي كان منتظرا قرب الصندوق فخرجت منه صرخة قوية كتمها حمزة بسرعة وهو يكتم فمه ويضربه ضربة أخرى فيسقط مغشيا عليه، قبل أن يضعه في الأرض، خرج الحارس الآخر فرعا مستكشفا أمر

زميله ليفاجئه ساري من الخلف، فيخنقه بسلسلة قيده قبل أن يستطيع التحرك، ويضربه حمزة بكل قوة فيسقط هو الآخر.

للحظة كان حمزة يقف مذهولا يتطلع لما فعله برهبة وجزع قبل أن يجد نفسه يتراجع للخلف من دفعة صغيرته وهي ترمي نفسها في حضنه وتصرخ فرحا، فيشدها إليه يحملها ويربّت على ظهرها قائلاً:
سأعيدك صغيرتي وسأفي بوعدتي ثقي بي.

بينما كانت الصغيرة تمرغ رأسها في صدره وهي تضحك وتردد اسمه كأنه تعويذة نجاتها، وساري ينظر إليهما بسعادة بينما عقله يدور في دوائر عديدة ليبادرهما قائلاً:

×هيا حمزة اسحب معي هذين الحارسين، ودعنا نكمنهما بلثامك هذا، ونرى ماذا ستكون الخطوة القادمة بعد أن تحكي لي كل ما تعرفه منذ دخلت هذا الكهف اللعين.

الفصل الثاني عشر

اتجه طاهر إلى حجرته في القصر وقد قرر أن يريح أعصابه قليلا قبل أن ينزل إلى الكهف ليعيش دور الزعيم مرة أخرى، حياته فارغة لا يملؤها سوى انتعاشة تتخلل روحه بنظرة الخوف من الجميع هناك في كهفه الحبيب، لم يكن ليعترف لنفسه أبداً أن هدفه لم يعد جمع الذهب، ذلك الذي حصل على الكثير والكثير منه حتى فاض به قصره وحياته كلها، فجدد القصر الذي كان حطاما كما كان يحلم والده، واقتنى كل ما حلم به يوما، حتى أنه لم يعد يجد ما يفعله بالذهب فاكتفى بكنزه في القصر في خزانة كبيرة، اعتاد أن يفتحها كل مدة ليقف في منتصفها مزهواً بنفسه وهو يتخيل نظرة الفخر في عيني أبيه.

فكر وهو يسترخي في جلسته أن القتل لم يكن صعبا كما كان يتخيل، ربما عليه أن يخدر الغرباء المتطفلين والدخلاء على كهفه ثم يجلبهم تباعا إلى القصر ويتخلص منهم ببساطة بدل سجنهم هناك في الكهف وتعريض سره للخطر، وبما أنه ولمرات عدة بحث عن الشجرة التي يدخلون منها في الغابة لكن الأمر كان غير مجدٍ مطلقا، وربما هي ليست شجرة واحدة فقط، وكما يبدو فإن التخلص من الدخلاء سيكون مستقبلا أسهل من البحث عن الشجرة والتخلص منها.

جلس ساري مقابلا حمزة الذي اندست فرح بجواره والسعادة تملأ
وجهها، ليقطع عليهما لحظات تواصلهما السعيد قائلاً:

«حسنا حمزة، قبل أن نبدأ بأي حركة من هنا عليك أن تخبرني سريعا
كيف دخلت إلى هنا وكل ما تعرفه عن هذا الكهف»

نظر حمزة إليه والحيرة ترسم بوضوح على وجهه الوسيم ليقول:

«لا أذكر شيئاً عن دخولي هنا كل ما أعرفه أننا نعمل في استخراج
الذهب من ماء النهر الذي يشق الكهف، ونأخذ نصيبنا من الطعام
مقابل الذهب لينتهي بنا المطاف بيومٍ مجهودٍ نتوجه آخره إلى غرفتنا
الصخرية المتشابهة»

رد ساري بذهول:

«كل ما تحصلون عليه مقابل العمل الشاق هو بعض الطعام فقط؟!»

نظر إليه حمزة بتوجس قبل أن يجيب بحذر:

«بل هناك المأوى وكذلك الأمان، نحن نحيا هنا ولا أحد يؤذينا أو
يتناول علينا حتى الحرس يعاملوننا جيدا طالما نلتزم القواعد»

انتفض ساري منفعلا يريد أن يجذب حمزة من ملابسه ويعنفه لكنه
تراجع خوفا على الصغيرة ليقف في مكانه ويصرخ منفعلا:

«أي مأوى وأمان هذا يا فتى؟! نحن جميعا سجناء هذا الكهف اللعين!

أي حياة هذه التي تتحدث عنها؟! إنها حياة الرقيق! الحياة تعني الحرية أن تعيش حرًا بلا قيود من أحد، الحياة أن ترى الشمس المشرقة كل صباح فتملأً روحك عزما وسعيا، الحياة أن تستكين إلى أحبابك في الليل مع القمر بلا خوف فيهنأ قلبك راحة واطمئنانا! هذه هي الحياة، وسواها أسر لروحك قبل أن يكون سجننا لجسدك، كفَّ عما تقول وفكر بطريق الخلاص واسع إلى الشمس الغائبة بعيدا عنك وإياك إياك أن تركن لظلام الكهف أيها الفتى الأحمق!»

انكمش حمزة خوفاً وهو يرى الرجل العجوز منفعلا يكاد يفتك به من شدة الانفعال فلم يستطع أن يعقب على كلامه ليلتفت إلى الصغيرة التي تشبث به ليحتويها بحنان وهولا يدري من منهما الذي ينقذ الآخر حقاً ويحتاج إليه.

طال الصمت للحظات حتى استجمع ساري أنفاسه الغاضبة ليأخذ نفساً عميقاً يمتص به غضبه قبل أن يبدأ الحديث بلطف ليهدي من روع الاثنين اللذين انكمشا على بعضهما أمامه

«حسنا حمزة اسمع مني ومن فرح كيف دخلنا نحن إلى الكهف لعلك تذكر شيئاً، فأنا أكاد أوقن أن هذه الصغيرة تعرفك من مكان ما غير هذا الكهف!!»

نظر حمزة لفرح بتركيز أكبر بعد أن استمع حكايتهما ليقول

«أنا لا أعرف ولا أذكر شيئاً غير الكهف.. لكنني رأيت نفسي مرة وأنا أحميها من أذى أطفال كان يسخرون منها ويؤذونها لا أعرف هل كان حلما أم أنه ذكري، لكن أنا لم أفهم كيف فقدت طفلا هناك أيضا!!»

جلست ضحى خلف إحدى الأشجار تقاوم ارتعاش جسدها وهي تحتضن نفسها بقوة ودموعها تنهمر كسيلٍ أبى أن يتوقف، «لقد قتلها» كانت الكلمات تتردد في عقلها دون أن تستطيع النطق بها فلسانها كان عاجزا عن الحركة كما كان كل جزء من جسدها.

ظلت على حالتها فترة حتى بدأت تهدأ وهي تحاول استعادة تركيزها لتفكر في مصير الفتاة الصغيرة وزوجها وكذلك أطفال القرية الصغار، ذلك الرجل الحقير يستحل كل شيء حتى القتل، إنها بحاجة إلى أن تستجمع ذاتها وتلمم شتات روحها وعقلها حتى تستطيع اقتحام ذلك القصر اللعين دون أن تلتفت الأنظار لكي تصل إلى أي شيء يقودها إليهم، استندت للشجرة وأخذت تتنفس ببطء وهي تمسك صدرها لعلها تهدئ من ضربات قلبها السريعة المرتعبة،

لا تعلم كم مرَّ من الوقت قبل أن تشعر بحركة قريبة منها فالتفتت تستطلع الأمر لتجد ذلك الرجل البغيض يسير وسط الأشجار فأخفت نفسها جيدا خلف الشجرة الضخمة، حبست أنفاسها وهي تراه يقف

أمام شجرة لم تختلف كثيراً عمماً جاورها سوى ببعض العلامات على جذعها، اقتربت بحذر لتراه قد أخرج فأساً ثم قام بضرب الشجرة ضربة خفيفة لتنتفح فجوة كبيرة تحت الشجرة وتبدأ دوامة كبيرة في جذب كل شيء داخل الحفرة.

أخذ الأمر كل تركيزها فتمسكت بالشجرة بكل قوتها تقاوم جذبها لداخل الفجوة لكنها أبت عينها مفتوحة تتابع بعجب ما يحدث، كانت الدوامة تجذب كل شيء حولها وصوت الرياح قوي عالٍ، رأت صاحب القصر وهو يستسلم للفجوة رافعا يديه للأعلى ومغمضاً عينيه وهو يتلو كلمات بصوت مرتفع كأنها تميمة أو تعويذة ما، لحظات فقط واختفى الرجل والفجوة وكل شيء بينما ظلت ضحى مكانها بعيون مفتوحة ولسانها يردد الكلمات بذهول ودون وعي حقيقي.

ارتفع صوت ساري وهو يقول: «حسنا حمزة علينا أن نتحرك فوراً فالوقت لن يكون في صفنا أبداً، أحضر سلسلة المفاتيح لنحرر كل السجناء هنا ليكونوا دعماً لنا قبل أن ننطلق إلى أصحابك ثم نبحث عن مخرج من هذا الكهف اللعين»

حالما انتهوا من عملهم كانت تلك المجموعة من العجائز الساخطين يقفون أمام الزنازين ليقول أحدهم بحدة: «من أنتم وكيف جئتم هنا؟، وماذا سيحدث بعد أن ضربتم الحرس وجلبتم لنا المشاكل،

هل تظنون أن مجموعة من العجائز الذين بالكاد يستطيعون الحركة قادرون على فعل شيء أيها المتسرعون، ماذا سنفعل الآن عندما يتم اكتشاف الأمر؟ من سيمنعهم عنا؟ هل تستطيع منعهم عنا أيها العجوز المتباهي؟!!»

وصل الغضب بساري منتهاه وهو يقف أمام المجموعة الساخطة، ليقول بغضب وهو يمسك الرجل من مقدمة ثوبه ويشد عليه في قوة وغيظ: «أيها الأحمق نحن عصابة معا نستطيع أن نهزم من نشاء إن أردنا، أم أنك تريد أن تكتفي بالفتات الذي يرمى إليك كل يوم، لا عجب أن بعض الحمقى لا يستحقون الحرية!!»

دفع الرجل بعيدا ليسقط أرضا ثم التفت إلى البقية المجتمعين ليقول بغضب: «نحن سنرحل من هنا لنبحث عن مخرج من هذا الكهف، من أراد أن يعود ليتنفس الحياة مرة أخرى فليأت معنا ومن لم يرد فزنازنته وقيده أكثر من مرحبين به، وهنيئا له الذل والاستكانة، ونحن سنسعى وحدنا للحرية»

أنهى كلماته ثم بحث في الأرض عن حجر كبير حمله بيد وأمسك بفرح بيده الأخرى، بينما أعطي العصا الغليظة لحمزة وسار بخطوات سريعة غاضبة دون أن يلتفت خلفه.

الفصل الثالث عشر

كانت الدوامة تحمله وهو مستسلم لها تماما حتى هدأت وتوقفت ليعتدل ويستند للحظات على صخرة من حوله حتى ينتهي الدوار الذي تخلفه في كل مرة، مرت عدة دقائق قبل أن يعتدل ويتجه بخطوات حثيثة إلى حجرته، وما أن وصل وجلس على عرش الكهف كما يحب أن يطلق عليه حتى استدعى قائد الحرس على وجه السرعة وقد عزم أن ينهي مسألة المتطفلين في أقرب وقت.

بعد لحظات دخل كبير الحرس عليه وهو ينحني بتقدير قائلاً:

«أوامرك سيدي الزعيم أبلغوني أنك استدعيتني على وجه السرعة»

نظر له طاهر بهدوء ثم قال:

«أحتاج أن أعرف عدد المتطفلين الذين نحتجزهم في الجهة الشرقية من الكهف»

رفع قائد الحرس رأسه مستغرباً وهو يتطلع لهدوء سيده واسترخائه فلم يستطع منع نفسه من أن يسأل:

«ماذا هناك سيدي الزعيم هل جدُّ شيء أو بلغتك أي شكوى لم تمر علي؟!»

رنت ضحكة طاهرعالية بشعة في أرجاء المكان وزاد الصدى من بشاعتها مما جعل قائد الحرس يتراجع بضع خطوات وهو ينظر

إلى زعيمه بتوجس ليقطع طاهر ضحكته ويقول وهو يكور قبضة يده ويرفعها:

«لا شيء هنا في عالمي يسير خارج إرادتي أبداً، كل ما يدور في هذا الكهف تحت قبضتي هذه، هل تفهم؟!»

لينزل يديه ويكمل بغموض وهو يتطلع إلى نقوش شجرة الباولونيا التي تملأ سقف المكان:

«فقط أحتاج لأعرف ربما هناك تغيير ببعض خططي بشأنهم، أريد أن أعين الأمر بنفسي، استدع لي حارسين آخرين لنذهب إلى الجانب الشرقي فوراً»

تقدم عمال الكهف لمكان الحرس يقايضون الذهب الذي جمعهه بالطعام ككل يوم، كان الصف طويلاً، والكل مرهق لكن ذلك لم يمنع تلك المحادثات التي لا تنتهي بينهم حتى علا صوت أحدهم:

«هل رأيتم حمزة اليوم؟! لم يظهر مطلقاً هل يعرف أحد أين هو؟»

تناقل الرجال السؤال حتى وصل إلى الحراس الذين ظهر التوجس على ملامحهم قبل أن ينطلق أحدهم بسرعة، وهو ينوي تفقد حجرة حمزة.

عندما عاد الحارس بعد فترة، وهو يخبر زملاءه أنه لم يجد أحداً، بدأ الهرج يسود الصفوف، وهم يلتقطون كلام الحراس المتوترين خوفاً

من العقاب على التقصير خاصة مع التنبيه شديد اللهجة الذي تلقوه
من قبل بمتابعة حمزة، بدأت الهمهمات تصدر هنا وهناك:

«ربما ذهب يبحث عن الفتاة؟!»

«هل قصة الفتاة حقيقية؟»

«لا أعرف ربما تخلص منه الزعيم»

ليظهر صوت بينهم قائلاً «لقد كان يتكلم عن الجانب الشرقي، ربما
ذهب يتفقد الفتاة هناك؟!»

عندها بدأ الحراس يتحركون بفوضى في اتجاه الجانب الشرقي وقد
تبعهم بعض الفضوليين.

«لا تخف إن تأخر قلبي عليك

أنا ما أضعتُ السبيلا

ولكنني في الطريق إليك

وجدت الطريق طويلا

غيمة غيمة يا حبيبي

سوف يكبرُ فينا المطرُ

وإنّا على موعد يا حبيبي

فليس يخونُ الترابُ الشجرَ؟

ولو أخرتنا الجراح قليلا

فلا بد أن يستجيب القدر، للشاعر مهدي منصور

بعد مدة كانت ضحى قد استعادت أنفاسها وقررت أن تلحق بالرجل إلى ذلك المكان وقد أيقنت أنه سيكون سبيلها لتجد أحبابها الغائبين، لم يكن للتردد مكان في قاموسها، فحياتها لا تقدر بثمن في سبيل إنقاذ من تحب.

اتجهت إلى الشجرة العجيبة وبدأت البحث عن الفأس الصغيرة، حالما وجدت ضربت بها الشجرة وهي تتمتم بالكلمات الغريبة التي كانت ما تزال تتردد في أذنيها، لتنتفح الدوامة وتبدأ في ابتلاع كل شيء حولها وتحملها معها إلى مصير مجهول كمن سبقها.

بعد فترة كانت تجلس بين الصخور في ذهول وهي تقاوم شعور الغثيان بسبب الدوار الشديد، لم تستطع أن تنتظر وهي تسمع جلبة في مكان قريب، فقامت تتلمس طريقها بحذر في الظلام الذي لم تعتده عيناها بعد وقد جعلت دليلها تلك الأصوات التي تصلها من مكان لا تعرفه.

ما أن وصل طاهر وحرسه إلى بداية الجانب الشرقي حتى وجدوا الدخلاء محررين وهم يلتفتون حول أحد العجائز الذي وقف يخطط

كما يبدو لشيءٍ ومعه تلك الفتاة الصغيرة وشاب يبدو أنه من عمال الكهف بهيئته القوية،

للحظات ظل طاهر مكانه في صدمة فاقدا لتنفسه وحركته وكأن نصلا حادا غرس في قلبه، وقف يحاول استيعاب ما يحدث مملكته وعالمه السحري ومكانته العظيمة في خطر، لقد سعى لتجنب مثل هذا التمرد لأعوام فكل عماله لا يعرفون لهم ماضٍ يدعوهم لأي ثورة أو تمرد، وقد حرص على التخلص من الدخلاء بعيدا حتى لا يختلطوا بهم، كيف إذا حدث هذا وكيف لم تطور الأمر حتى وصل لهذه المرحلة،

أعمل عقله وحسم أمره بسرعة، لا بد من كسر شوكة الرأس المدبر ليجزع بقيتهم، فصرخ في حرسه بقوة:

«أمسكوا ذلك العجوز الذي يقودهم وقيده فوراً»

انطلق الحرس بسرعه ناحية ساري وهم يرفعون عصيهم لينالوا منه ثم يقيده لكن مجموعة الدخلاء التفوا حوله وبدأ صراع بالأيدي بين الحرس والدخلاء، كان ساري يتعارك مع أحد الحرس حين سمع الصغيرة تصرخ من بعيد:

«انتبه جدي ساري»

لم يكذب يلتفت حتى عاجله حارس آخر بضربة على رأسه من الخلف جعلته يوشك على السقوط، كاد أن يستسلم وهو يستشعر النهاية ربما

هو من ألقى فتيل الثورة للخلاص، لكن لم يعد فيه جهد للمواصله، ربما حانت ساعة النهاية، وسيكون سعيدا أنه لم يمته خائعا ذليلا، مع هذا الخاطر أغمض عينيه براحة وهو يستسلم لمصيره، لكن صرخة هلعه باسمه جعلته يفتح عينيه بلهفة غريق رأي قارب النجاة، تلفت حوله بيأس يتنشق وجودها هل سمع صوتها حقًا، ضحاه وشمسه وترياق حياته هنا، أم أنه خياله المشتاق وحسب.

كانت تسيير وقد بدأت ترى بصيصا من النور يرشدها إلى مكان الأصوات ما أن وصلت حتى رأت مجموعة من الناس يتعاركون أغلبهم من العجائز، ورأت الرجل القاتل يقف متحفظا في ناحية قريبة، بهدوء حاولت أن تستوضح الأمور وتتأمل الجمع لتفهم ماذا يحدث، رأت فتاة صغيرة وسط الشجار فتابعته بلهفة تحاول تبين ملامحها قبل أن تسمعها وهي تصرخ «انتبه جدي ساري»

لمحة واحدة لذلك العجوز الذي كان يترنح مغلقا عينيه حتى صرخت باسمه وهي ترى أحد الرجال يرفع عصا غليظة ليضربه من خلفه، لم تكن تستوعب كيف صار عجوزا أو كيف عرفته كل ما في الأمر أن وتيرة دقات قلبها اختلفت فأيقنت أنه هو حبيبها وبلسم روحها الذي أجهدت في انتظار لقائه.

التفت يدفع من خلفه بقوة غريبة على سنه الكبير في نفس اللحظة التي هجم بها شاب ضخم على الرجل المعتدي، وضربه ضربة قوية أسقطته أرضاً.

كانت هي تقف في جزع تتابع ما يجري حتى التقت الأعين وتوقف العالم عن الدوران، إنه هو، فقد عرفه قلبها ولو أنكرت هيئته، وروحها تلاقت بروحه قبل أن تلتقي أعينهما، تاهت في نظرة الحنان والشوق بعينيه حتى ما عرفت كم غابت عن الحياة قبلها، تنفست وجوده حولها وكأنه موجة حانية تغسل شاطئ روحها من وجع الفقد ولهيب الانتظار.

صرخة من ذلك القاتل بددت جو السحر من حولها فتحولت بنظراتها إليه لتجده يتحرك بشكل مفزع وهو يصرخ بكلمات غاضبة «دماااا لوثتم كهفي بالدماء انتظروا الدمار، دمرتم كل ما عملت له في حياتي، انتظروا الدمار، لعنة الكهف ستحل قريباً عليكم جميعاً أيها الملاعين» تسمر الجميع في أماكنهم مشدوهين من كلامه العجيب ليتابعوه وهو يسير بسرعة في اتجاه حجرته ومازال يصرخ «الدماء تعني الدمار... الدمار أيها الأوغاد... دماء في كهف الباولونيا تعني الهلاك»

بحث ساري عن تلك الدماء التي عناها الرجل ليجد الحارس الذي ضربه حمزة ينزف من رأسه لكنه كان على ما يرام، لذلك وقف بعزم وتكلم بصوت مرتفع ليسمعه الجميع وقد رأى مجموعة من الشباب يقتربون من بعيد ومعهم بعض الحرس:

«حسنا لقد هرب زعيمكم وانتهى هذا الصراع، والآن كلنا يجب أن نكون صفًا واحدا لنجد طريق الخروج من هنا جميعا قبل أن تحل اللعنة التي يهذي بها هذا المجنون، لذا علينا أن ننسى كل ما سبق ونلحق به لأنه الوحيد على ما أظن الذي يعرف سبيل الخروج من هنا»

عندما قابله الصمت التام ولم يجد أي اعتراض مد يديه إلى ضحى فأسرعت تمسك يده وتسير إلى جواره،

وبجوارهما حمزة وقد حمل الصغيرة على كتفه.

ظلت ضحى بجوار زوجها تتشبث بيديه عاجزة عن الكلام من رهبة ما يحدث، كانا يسيران مع الجمع في نفس الاتجاه من حيث سار ظاهر أمامهم لعلهم يصلون لمخرج الكهف المجهول، عندما وصلوا مدخل حجرة الزعيم تراجع البعض خوفا بينما انطلق البعض الآخر مسرعا للدخل في فضول، الغرفة كانت كبيرة جدًا مزينة بخشب الباولونيا الصلب يتوسطها ذلك الكرسي الضخم الذي يشبه عرش الملوك بينما امتلأت جوانب الغرفة بصناديق من الذهب جعلت لعاب الطامعين يسيل كعادة البشر.

أخذ ساري يتحرك في المكان محاولا الوصول للمخرج خاصة أنهم

فقدوا أثر طاهر، كان يتفحص الغرفة من كل الجهات بتركيز شديد غافلا عن أولئك الذين بدؤوا في الشجار والعراك وهم يتناوشون على قطع الذهب، حتى جذبته أصواتهم وهي تلعو بشدة، أسرع إليهم لكن قبل أن يوقف الشجار فوجئ بأحد الرجال يسقط أرضا وهو ينزف بشدة بعد أن ضرب بحجر ذهبي على رأسه فشجها، مرت لحظة واحدة توقف فيها الجميع بترقب قبل أن تميد بهم الأرض، وتبدأ جدران الكهف في التشقق، وقد علا صوت كالرعد يدوي بقوة، ويتردد في الأنحاء « دماء في كهف الباولونيا تعني النهاية تعني الدمار!!! »

وراح بصيص من ضوء الشمس يتسلل في عزم ليبدد ظلام الكهف، ويشرق على وجوه الثائرين...

..... **النهاية**

الخاتمة

احتضنت ثوبها الذي كانت ومازالت تلجأ إليه كلما اشتاقت لهما، ذلك الذي تحتفظ به بحرص في إحدى جنبات خزانتها، ثوبها الذي ارتدته في يوم خطبتها وقد خاطته لها خالتها ضحى بكل الحب الذي منحته لها منذ اللحظة التي احتوتها فيها وهي تتمم بتلك الكلمات الغريبة التي تشبه تعويذة قديمة عندما تزلزل الكهف بهم وبدأ كل شيء بالانهيار، بعد هذا العمر ربما تاهت منها بعض التفاصيل لكنها لن تتسى ذلك الحزن الذي تشبثت به حتى فقدت وعيها لا تعلم لكم من الوقت قبل أن تُفِيق على صوت العم ساري وهو يبحث عنهم،

ساعتها تفاجأت به مختلفا قوي البنية وقد انحسر الشيب من لحيته وشعره إلا القليل، لكن المفاجأة الحقيقية كانت في حمزة ذلك الذي صدمها عندما رآته قد صار طفلا قريبا من عمرها فعرفته من ملابسه التي تهدلت عليه وملامحه التي لم تتغير كثيرا، ابتسمت وهي تتذكر تلك الملامح التي حفظتها وعشقتها على مدار عمرٍ كاملٍ جمع بينهما، منذ أن أخبرتهم أنها لا بد أن تتزوجه حين تكبر لأنه سيكون يوما وسيما جدا.



للترجمة والتدريب والنشر والتوزيع

info@ibda3-tp.com

dreidibrahim@gmail.com

ibda3bookstore@gmail.com